كتم أنفاس

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١

هاتف : ٠١٠٠٠٣٢٨٨٥٩٦

بريد إلكتروني : Dream.pen92@gmail.com @yahoo.com

كتم أنفاس

تأليف: إسراء أحمد البكري

الطبعة الأولى، القاهرة 2019م

غلاف : عمار جمال العبد

تدقيق لغوي وتصميم : الديوان للتصميم وخدمات النشر

رقم الإيداع : ؟؟؟ / 2019

I.S.B.N: 978-977-488-???-?

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

كتم أنفاس

«مجموعة قصصية»

إسراء أحمد البكري

إهداء

إلى من علمني من نهر حنانه كيف يكون العطاء... وكيف تُقتطف الكلمات وتُسرد بين سطورٍ مليئة بحروفٍ من الحب.. (أبي)

إلى من جعلتني أقوى على مصاعب الحياة وأعرف كيف يكون صمود الجبال..(أمي)

إلى عائلتي

إلى عائلتي التي ساندتني حتى أكون أنا..

إلى زوجي وابنتاي مُلهمي أفكاري وسبب إلهام كلماتي...

فأنا بدونكم لم أكن يوما أنا....

***

المقدمة

عاشقةٌ أنا للواقع... أحب أن أقتطف منهُ حروفي وكتاباتي... أسرد من أحداثه قصصا لأجعلها تتعمق إلى أذهانكم وتصل إلى قلوبكم فتلمس شعوركم بما أرويه..

حياتنا ما هي إلا دروسٌ مستفادة من خلال أحداث تدور ولا تتوقف.. قد تتشابه هذه الأحداث بيننا ولكنها تختلف فى الأشخاص والمكان...

عيوننا ترى كل الأشياء فهي مصدر إمدادنا بشعاع الفهم فهي نقطة التواصل بيننا وبين الأشياء المحيطة بنا... لذلك سأجعل ما كتبته أنا لكم تلتمسوه بأعينكم وتشعروا به بقلوبكم... فجزءٌ كبير مما رويته أنا هنا من خلال أحداث حقيقية ربما أكون أنا بطلتها.. وربما أقرب الناس لي.. وربما شخصٌ منكم..

ولكن ما أعرفه...

أنكم جميعكم أنا...

وأحداثي وكلماتي ما هي إلا قصة حياة البعض منكم..

فقلمي يمثلكم أنتم...

***

كتم أنفاس

البداية

أحمد أربعون عامًا يعمل في أكثر من مهنة بحكم الظروف وقلة المادة.. فهو يملك من الوسامة قدرا عاليا ومن الطريقة المثالية في الكلام المعسول قدرا كافيا لإيقاع أي بنت تقابله.. عنده مقدرة عالية أن يجعل أي امرأة تذوب عشقًا في حبه ضحاياه أكثر من عدد شعر رأسه في الغرام فملامح أحمد كفيلة أن تجعل أي فتاة تعشقه عشقًا خياليًا فوجهه الأسمر وعيناه البنيتان كلون عيون الصقر في نظراتهما أيضًا عند اصطياد الفريسة وشعره الأسود اللامع الكثيف يجعله مغرورًا جدا بنفسه حتى في مظهره الخارجي في ارتداء ملابسه دائما ما تجده لا يرى أي شخص أفضل منه فهو فقط من خلق جميلا على هذا الأرض وبالرغم من كل تلك القدرات إلا أنه يملك قلبا قاسيا متحجرا لا يلين تحت أي ظرف من الظروف أبدًا.

في إحدى الشقق بأحد الأحياء الشعبية كان ينام شاب وسيم عاري الصدر نائم على ظهره ويمد ذراعه على وسادة

السرير والذراع الآخر مثني وراء ظهره و تنام بجواره إحدى فتيات الليل يتكرر هذا المشهد تقريبا يوميا مع أحمد ولا يقوى أحد من الجيران على منعه أو مواجهته لسوء سلوكه.. تتوالى الأحداث بنفس المشهد كل ليلة فتاة ليل تأتي وأخرى ترحل ولا جديد بعد..

في نفس الشارع تقريبا كانت تقيم أسرة محترمة مكونة من ثلاث أفراد (عامر) الأب (وهناء) الأم (وملك) الابنة فالزوج كان يعمل بالخارج ولا يأتي لأسرته زيارة إلا شهر واحد بالسنة أما عن هناء فكانت تبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا تملك محل إكسسوارات بسيط ولديهم طفلة جميلة تدعى ملك تبلغ من العمر أربع سنوات.

كانت هناء كل يوم تستيقظ للعمل بمحلها وتصطحب معها ابنتها وكان أحمد دائما ما يمر على ذلك المحل ويلقي بنظره داخله ليتأمل بهناء ومن ثم يذهب إلى عمله.

إلى أن توالت الأيام وراء بعضها وجاء الخبر المشئوم لهناء بوفاة زوجها عامر بالخارج قامت هناء بإنهاء اوراق استلام جثمان زوجها ومن ثم دفنه.

توالت الأسابيع إلى أن عاد وضع هناء إلى وضعه الطبيعي وبدأت تعاود عملها بالمحل من جديد..

أخذ أحمد يمر من على المحل كل يوم إلى أن وجد هناء ظهرت مرة أخرى له..

فهناء كانت على قدر عالٍ من الجمال.. لم يمر على وفاة زوجها ما يقرب عام حتى بدأت تظهر نفسها في أبهى ملابسها.. وتتفنن في إظهار مفاتنها الدفينة.. وبدأت الجيران تلاحظ ذلك وتتهامس عليها.. فذلك التغيير الذي قد جد عليها لم يكن يظهر من قبل فدائمًا كانت مهملة في حق نفسها بحكم غياب زوجها الطويل وخوفها من كلام الناس والقيل والقال.

***

الباب الأول..

بداية عشق...

بدأ أحمد يلاحظ ذلك التغيير على هناء وبدأ تفكيره في الانشغال بها وبجمالها ليلا ونهارًا..

فمن الواضح أن ذلك المغرور قد وقع في مصيدة الحب ومن الواضح أيضًا أنه مازال يملك جزءا صغيرا ينبض في ذلك القلب المتحجر يستطيع أن يحب به مثل بقية البشر.

وفي نهار أحد الأيام تجرأ أحمد ودخل على هناء بمحلها..

بدأ في التنحنح قائلًا: صباح الخير يا أم ملك

ردت:

- صباح النور. وآثار التعجب تملأ حاجبيها.

- كنت عاوز أخد من وقتك دقايق.

- خير.. اتفضل.

وفي أثناء هذا الحوار الذي دار بينهم كانت الزبائن مستمرة في الدخول والخروج من المحل ولم يستطع أحمد وهناء إكمال حديثهما بالإضافة إلى أن الطفلة ملك كانت تصير ضجة عالية كافية لعدم إعطاء فرصة لهناء بالحديث مع أحد.

عاود أحمد قائلا: طيب واضح إني مش هعرف أكلمك هنا ممكن تديني ورقة وقلم.

أخذت هناء دفتر المحل من الدرج وأحضرت ذلك القلم الملقى على مكتبها وأعطته إياه.. أخذ أحمد القلم وكتب على أعلى الدفتر رقم هاتفه ثم عاود قائلا: ممكن تكلميني ضروري على الرقم ده..

ثم نظر إليها نظرة هائمة وذهب..

وفي المساء انصرفت هناء كالعادة وأغلقت باب محلها وصعدت بابنتها النائمة على كتفها إلى بيتها.. وبعد انتهائها من العشاء وبعد أن كانت قد وضعت ملك بسريرها وأصبح الجو هادئًا أخذت هاتفها الذي قد سجلت عليه بالفعل رقم هاتف أحمد في الصباح.. في البداية كانت مترددة في الاتصال به ولكن في النهاية قد طلبته وما أن كتب الهاتف على شاشتها جاري الاتصال حتى رد سريعًا عليها:

- الووو.

- اااااااه.. أستاذ أحمد.

- أيوة.. أم ملك.

- وعرفت ازاي؟

- كنت عارف إني مش هنام قبل ما تكلميني.

- كنت قولتلى إنك عايزني ضروري... خير.

- ومالك داخلة عليا عالحامي كده ليه.. صبرك عليا أنا بس محتاج فرصة ووقت أقدر أقولك فيهم عالي أنا عاوزه ومش مطلوب منك أي حاجة غير بس تسمعيني.

- اتفضل قوول.

- يا ستي أنا اسمي أحمد عندي (٤١) سنة مش متجوز ومحبتش ولا مرة قبل كده بس تقريبًا تقدري تقولي عليا إني وقعت خلاص.. تصدقي بإيه يا أم ملك أنا عمري ما كنت أتخيل إني هيجي عليا يوم وتيجي جميلة الجميلات تخطف قلبي وتخليني أشوف الجنة التانية اللي كنت بسمع ناس كتير بتحكي عنها..

حتة كده كنت هموت وأعرف شكلها إيه وبتتحس إزاي.. بس عيني من أول ما لمحتك بالمحل وأنا مش عارف قلبي ماله بس ولا عارف أنام ولا عارف أشوف شغلي زي الناس.. انتي خطفتيني كده من غير سابق إنذار..

قال وأنا اللي كانوا بيقولوا عليا قلبي ميت مبيعرفش يحب تيجي انتي وتصحيه.

- طيب بعد ده كله أنا مطلوب مني إيه.. على فكرة أنا مش زي اللي انت عرفتهم قبل كده في حياتك.. أنا عارفة عنك كل حاجة أو زي ما تقول كده الشارع كله عارف عنك.

- بس انتي عمرك ما هتكوني شبه اللي أنا عرفتهم قبلك.

- آسفة بس أنا أُم وعندي بنت أخاف عليها من شخص نزواتي زيك.

أغلق الهاتف عند ذلك الجملة التي خرجت من فمها كالصاعق الكهربائي على أذني أحمد...

مر أكثر من ثلاثة أشهر على مكالمة أحمد وهناء ولم تتكرر المحاولة مرة أخرى بينهم فقد كانت كلمات هناء في إنهاء المكالمة مع أحمد كالسكين الحاد على قلبه.. ولكن بال أحمد ما زال مشغولاً بها فكما نعرف أن (الممنوع مرغوب).

كانت هناء مشغولة في هذه الفترة بتقديم أوراق ملك ابنتها للمدرسة وأثناء عودتها من المدرسة فوجئت بتجمهر الجيران وأناس كثيرين على زاوية شارعهم وأصواتٌ متعالية بجملة واحدة فقط (لا حول ولا قوة إلا بالله).

هناء في حالة من الذهول قائلة: في إيه؟ هو إيه اللي حصل؟

قال أحد الجيران: الحقي يا أم ملك بيتكم وقع.

كانت الكلمات كالصاعقة على مسمع هناء.. حملت ابنتها على ذراعها واتجهت مهرولة نحو منزلها تبكي وتصرخ قائلة:

- بيتي.. فلوسي.. أروح فين أنا دلوقتي.. أعمل إيه بس يا ربي..

وأخذت تنهار في البكاء إلى أن فقدت القدرة على الوقوف..

فبدأت بالجلوس على الأرض من شدة التعب بعد سماع خبر انهيار منزلها.. في هذه اللحظات حضرت النيابة لتحقق في قضية انهيار المنزل القديم جدًا.

مرت ساعات على ذلك الانهيار وقد ذهب كل من الجيران إلى حاله وتركوا هناء على الأرض جالسة وفي حضنها تنام ابنتها ملك الصغيرة وما من أحد قد ساعدها بشيء سوى هذه الكلمات التي ما إن وقع الحادث كانت تنهار على مسمعها كالأمطار «لا حول ولا قوة إلا بالله» «ربنا يعينك يا بنتي»

وجيران آخرون يقولون: «ما تيجي يا أم ملك تدخلي عندنا تغسلي وشك علشان البنت طيب».

ولكن صمت هناء استمر إلى أن جاء أحمد ليتجه نحو منزل هناء وهو يصيح: «إيه ده.. في إيه.. إيه إللي حصل».

رد.أحد الجيران: بيت أم ملك وقع يا أحمد يابني.

- وهما فين دلوقتي؟

أشار له جارهم على مكانهما ليلتفت أحمد إلى يمينه ليتفاجأ ببكاء هناء التي كانت تحمل ملك النائمة على كتفها..

انحنى أحمد وأخذ يمد يده إلى هناء لينهض بهما إلى أعلى ثم قال:

- متخافيش أنا مش هسيبك

هناء وهي تمسح دموعها وتلتقط أنفاسها من شدة البكاء:

«إزاي يعني»

- هاخدك تعيشي عندي في شقتي.

- هعيش إزاي في شقتك وأنا مش مراتك.

- بس كده.. حاضر..

يصيح أحمد بصوت عالٍ ليجمع سكان الشارع:

- اشهدوا يا ناس الست دي من الساعة دي هتبقى مراتي.. ما حد يا جماعة يبعت يجيب لنا المأذون.

أخذ الجيران ينظرون لبعضهم البعض من خلال الشرفات والنوافذ والواقفين في الشارع أيضًا في ذهول، ثم ردد أحدهم قائلًا: اجري يا أدهم يابني نادي على عمك الشيخ مكاوي

اللي في الشارع اللي ورانا خليه ييجي بسرعة واحنا الشهود موجودين أهو.. وألف ألف مبروك يا أحمد يابني.

في حوار دار بين أحمد وهناء أثناء جلوسهم على أحد المقاعد الموجودة أمام المحلات بالشارع:

- انتي كويسة.. ليه حاسس إنك مش مبسوطة من خبر جوازنا.

- لأ مش قصة إني مش مبسوطة بس للي حصلي ده مش قُليل (بيتي.. ومحلي.. وفلوسي..) ومالیش حد أنا مقطوعة من شجرة..

بابا وماما ربنا يرحمهم ماتوا وسابولي البيت ده ورثي وأنا وحيدتهم مجابوش غيري للدنيا حتى عامر جوزي أبو ملك الله يرحمه مكانش ليه غير أخ واحد في الخليج أكبر منه في السن وربنا يرحمه هو كمان ومش عارفة أعمل إيه بس ياربي.

- ازاي ما لكيش حد يا هناء أومال أنا روحت فين!

في الواقع أن معظم أهل الشارع كانوا يعرفون تاريخ أحمد غير المشرف وكانت نظرتهم الدائمة له التي كانت لا تتغير بسبب تصرفاته الشهوانية مع النساء التي لا ينقطع قدمهم من منزله..

فقد كانوا لا يكنون له أي احترام ولكن منذ ذلك اللحظة التي أعلن فيها موقفه النبيل وزواجه من هناء قد غيرت

مفهومهم تجاهه وأدركوا أنه مازال بداخله شيء من الشهامة والرجولة.

أحمد يصيح بصوت عالٍ: يا عم حمدي.. يا عم شوقي تعالوا عايزكم دقيقة.

رد.عم حمدي المكوجي: عايز إيه يا سي أحمد.. خير؟

- تعالى يا عم حمدي وهات عم شوقي في إيدك انتم النهاردة هتشهدوا على عقد جوازي من الست اللي تتاقل بالدهب دي.

يصيح أحمد مُهللًا: يا أهل الحارة أنا من النهاردة خلاص هكون إنسان تاني أنا عارف إنه كل اللي في الحارة مبيحبونيش من كتر عمايلي السودا اللي كنت بعملها لكن خلاص أنا بقيت من النهاردة إنسان مسئول وقررت إني أتغير عشان خاطر الست دي هي وبنتها دول خلاص بقوا في رقبتي.

أهل الحارة بصوت واحد عالٍ: ربنا يباركلك يا أحمد يا بني ويسترها معاك دنيا وآخرة

بعد دقائق حضر المأذون...

كان عم حمدي في هذه الأثناء قد جهز طاولة مستديرة من داخل محله ووضع بجانبها ثلاث مقاعد خشبية وأجلس حولها كلًا منهم أحمد يمينًا وهناء يسارًا والمأذون بالمنتصف.

وأخرج كل منهم بطاقتهم الشخصية ومعهم عم شوقي أيضًا كشاهد ثاني على زواجهم ومعهم هناء فكانت بالطبع تحمل في حقيبتها الخاصة بطاقتها الشخصية.

ردد المأذون كلماته المعروفة لإتمام عقد الزواج.. ومن ثم قام أهل الحارة بالمباركة لهم وتعالت أصوات الزغاريد من نوافذ البيوت.. ثم قام أحمد وحاسب المأذون واتفق معه على استلام عقد الزواج الأسبوع المقبل..

أخذ أحمد هناء من يدها وحملَ عنها ملك التي كانت ما زالت نائمة وصعد بهم إلى شقته..

قام أحمد بفتح باب الشقة وأشعل زر الضوء ومرر هناء للداخل واتجه يمينًا لتلك الغرفة المقابلة لهم ووضع ملك بسريرها الجديد..

خرج أحمد على هناء بالصالة وقال لها وهو يمسك بيديها الاثنين في يديه: من النهاردة الشقة دي بقت بتاعتك انتي وملك وأنا من النهاردة ضيف شرف عليها..

في حالة من الصمت تكسو ملامح هناء: أنا مش لاقية كلام أقوله.

- شششششش.. متقوليش حاجة انتي النهاردة تسمعيني وأنا بتكلم وبس.. انتي من الليلة دي بقيتي أميرة قلبي وحب عمري أنا عايز أعترفلك إني حبيتك من أول نظرة وإني مكنتش

أصدق إن الأقدار تلعب لعبتها وتكوني ليا بالسرعة دي بس واضح إن ربنا كتبلي الهداية على إيديكي وخلاكي انتي تكوني السبب فيها.

- أنا كمان حبيتك من أول نظرة بس خوفي من ربنا وكلام الناس هو اللي خلاني بعدت عنك واضطريت أكتم حُبك جوة قلبي بس أنا مانكرش إني طلبتك من ربنا في صلاتي إنه يجعلك حلالي في يوم من الأيام.. بس واضح زي ما أنت قولت إن دي لعبة الأقدار وإن اللي ربنا عاوزه هو اللي بيكون.

ابتسم أحمد وأخذ يقبل رأسها ويديها ثم احتضنها بقوة وهمس في أذنها (بحبك)....

***

الباب الثاني

صعوبة القدر...

مرت الأيام والشهور والسنين على زواجهما وكانت الحياة تسير بكل ما هو جميل بالنسبة لقصة حبهما

كبرت ملك وأصبحت فتاة كاملة الأنوثة وكانت تعتبر أحمد الأب الذي قد عوضها الله به..

في نهار يوم جديد خرجت هناء لشراء مستلزمات السوق الخاصة بها وتركت ملك نائمة بغرفتها وأحمد أيضًا في غرفته نائم ولكن واضح أن ذلك الماكر كان يفتعل حالة نائم أمامها فقط حتى ينفذ مخططه الشيطاني.

أخذ أحمد ينهض من سريره وهو يخطو خطوات خفيفة بطيئة ليتفحص الحال بالخارج ليطمئن قلبه بأن أصبح المكان خاليًا له هو وشيطانه..

وسرعان ما أن تأكد من هدوء المكان خارج غرفته ليتجه مسرعًا كالمجنون إلى غرفة ملك وقام بإغلاق الغرفة من الداخل وأخذ يقترب ويقترب من ملك.. فأخذ يتحسس ملامحها البريئة ويتغزل بها..

ومن ثم هجم عليها كفريسة تحت يديه ليقوم بقتل براءة تلك المسكينة..

في هذا الوضع أخذت ملك تقاوم ذلك الوغد وتصرخ بصوت عالٍ..

ارتعب احمد وارتبك من سماع الجيران لاستغاثة تلك المسكينة فقام بوضع يده على فمها وما أن أنهى مهمته الشيطانية اللعينة حتى وجد ملك قد فارقت الحياة فقد انتهت أنفاسها أثناء إنهاء مهمته الشريرة معها.

ابتل وجه أحمد وصار لونه شاحبا فنهض مهرولًا من فوقها ورجع للخلف وهو ينظر إليها فقام بإعادة كل شيء كما كان.. وقام بتعديل وضعية ملك على سريرها وكأن شيئا لم يكن ثم خرج من غرفتها وهو يتلفت خارجًا وعندما تأكد أن هناء زوجته لم تأتِ حتى الآن أسرع إلى غرفته وأغلق الباب عليه جيدًا واصطنع حاله نائم بسريره.. وكأن شيئًا لم يكن.

سمع أحمد صوت غلق باب الشقة.. فمن الواضح أن هناء قد عادت من الخارج..

أغمض أحمد عينيه وافتعل حاله نائم.. في هذه الأثناء كانت هناء تقوم بفتح نوافذ الشقة لتجعل الشمس تمر إلى الداخل كعادتها اليومية..

ثم اتجهت إلى غرفتها النائم بها أحمد لتوقظه حتى تعد له الفطور.

- أحمد ياللا قوم ياللا أنا جيبت الفطار وهدخل أحضره بالمطبخ على ما أنت ما تكون قومت ودخلت الحمام وغسلت وشك..

يا أحمد.. هي ملك صحيت طيب.. ولا شكلها لسه نايمة هي كمان زيك.

- طيب صحيها على ما أغسل وشي وأدخل الحمام.

- لأ صحيها إنت أنا مش فاضية بحضر الفطار.

اتجه أحمد من غرفته ثم صوب نظره على هناء فكانت تقف بالمطبخ وتعطيه ظهرها.

بدأ أحمد في ابتلاع ريقه وأخذ يفتح باب غرفة ملك وينادي عليها من على باب الغرفة.

- ملك..ياللا يا بابا ماما جابت الفطار اصحي ياللا.

ثم اتجه إلى الحمام وتأخر بالداخل حوالي خمس دقائق ثم خرج ليلقي نظرة على هناء التي كانت قد جهزت طاولة الطعام فسألها وهو يمسح وجهه المبلل بالمنشفة:

- هي ملك كل ده مصحيتش بردو.

- مش عارفة مالها النهاردة كده أنا هدخل أصحيها أنا.

اتجهت هناء إلى غرفة ابنتها وإلى ذلك الوقت كان الوضع طبيعيًا ولا يوجد أي شيء يدل على وفاة ملك..

اقتربت هناء من سرير ملك وجلست بجوارها توقظها بيدها صائحة:

- ملك.. ملك.. ياللا يا حبيبتي أنا حضرت الفطار.

فإذا بملك لا تنطق.. ووجهها لونه شاحب وشفتيها صار لونهما أزرق ويداها مثل الثلاجة..

فأخذت والدتها تهز فيها وترفعها إلى أعلى ولكن ملك كانت لا ترد أخذت هناء تصرخ:

- يا أحمد.. يا أحمد الحقني مش عارفة ملك مالها!

أسرع أحمد وهو مصفر الوجه وهو يقطع في الكلام:

- مالها فيها إيه؟

- مش عارفة مالها مبتردش عليا ليه!

ولكن في هذه الأثناء لاحظت هناء بعينيها على صدر ملك علامات عنف مما يدل على محاوله أحد افتراس جسدها وبقلب الأم كما نعلم ذهب عقلها إلى أحمد لتنظر إليه وهي تحدق به ليصيح أحمد قائلًا:

- انتي بتبصيلي كده ليه!

- لا أبدًا..

ثم شردت بفكرة في عقلها ثم عاودت الكلام قائلة:

- هي شكلها مغمى عليها أصلها إمبارح طول اليوم ماكلتش حاجة وممكن يكون جالها هبوط وهي نايمة أنا هقوم أعملها كوباية مايه بسكر.

- أااه.. اااااه.. امليلها مايه بسكر... وأنا هخلي بالي منها.. متقلقيش.. هي مغمى عليها..

ذهبت هناء إلى المطبخ وأخذت عصا فرد العجين الخاصة بها واتجهت إلى غرفة ملك..

في هذه الأثناء كان يجلس أحمد على طرف السرير وظهره لباب الغرفة لتهجم عليه هناء بضربة يدها من أعلى إلى أسفل على رأسه ليقع أحمد مغشيا عليه....

***

الباب الثالث...

انتقام أُم...

لا أعلم من أين أتت هناء بهذه القوة المضاعفة في هذا التوقيت.. ومن أين جاء لها هذا الصبر والصمت.. ولكن من الواضح أنها قوة (الانتقام).

قامت هناء بسحب أحمد من عالأرض إلى خارج الغرفة متجهة به إلى الحمام ثم قامت بحمله من قدميه لتضعه في حوض الاستحمام ثم ذهبت مسرعة إلى الخارج واتجهت الى المطبخ وفتحت درج الخزانة وأحضرت ذلك الحبل الملفوف وسكين كبير حاد حتى تقوم بتكتيف أحمد به لتشل حركته عندما يفيق ثم أحضرت مقعدا بجواره وجلست عليه وانتظرته حتى استرد وعيه..

عـاد أحمـد إلى وعيـه ليجـد نفسـه ملقـى داخـل حـوض الاستحمام مقيـد اليديـن والقدمـين فنظـر إلى هنـاء وهـو يحـاول تجميـع كلماتـه:

- هناء.. اسمعيني انتي ليه مكتفاني كده.

هناء كانت تحمل ذلك السكين الكبير الحاد..

في نظـرة رعـب وانتقـام.. أخـذت تقطـع لـه إصبعـه الكبـير بيـده اليمنـى..

ليصـير أحمـد صارخًـا.. خرجت هنـاء في لمح البـصر وأخذت تشـعل التلفـاز عـلى أعـلى صـوت ومـن ثـم الراديـو.. وقامـت بإغـلاق جميـع النوافـذ المفتوحـة أيضًا..

ثم عادت مسرعة إليه قائلة:

- ليه..عملت كده ليه!

- أنا معملتش حاجة صدقيني.. انتي فاهمة غلط.

أخـذت هنـاء مـن غيظهـا تقطـع لـه إصبعـه الثـاني مـن يـده اليـسرى ثـم عـاودت قائلـة:

- عملت في بنتي كده ليه.

- صدقيني معملتش حاجة.. الحقووني هموت!!

أخذ أحمد يستغيث بالجيران.. في هذا الوقت كان الدم يسيل منه داخل الحوض كماء الصنبور المفتوح.

أخذت هناء قدميه ناحيتها ثم قامت بقطع إصبعه الكبير الأول ومن ثم الثاني من قدمه حتى انتهت من جميع أصابعه يدًا وقدمًا..

بدأ أحمد في فقدان وعيه وهو يتمتم بكلماته هذه:

- أبوس إيدك مش قادر قلبي هيقف.. آسف معلش الشيطان غواني.

صرخت هناء بعينيها الجاحظتين المملوئتين بنظرات الشر والانتقام:

- معلش..!!!

اغتصبت بنتي وبتقولي معلش..!!

كتمت نفسها وموتها وبتقولي معلش..!!

ثم رفعت السكين لأعلى بصرخات هستيرية وفصلت ذراعيه ومن ثم رقبته وقامت بفصل البقية عن بعضها ليتحول الحمام إلى ساحة من الدماء.

عندما انتهت هناء من تقطيعه إلى أجزاء أخذت تصيح بضحكات هستيريه متقطعة:

- أخدت بتارك يا ملك...

قتلته...

ثم عادت للبكاء وهي تحدث نفسها:

- سامحيني يا بنتي معرفتش أحميكي

ثم خرجت للجيران ويديها وملابسها ووجهها ممتليئان بالدماء لتصرخ بأعلى صوتها:

- أخذت بتارك يا ملك يا بنتي يا حبيبتي.. قتلته زي ما قتلك

أخذ الجيران يتسارعون بالدخول إلى الداخل وهم في حالة تعجب ليجدوا أحمد بالحمام مقطع إلى أجزاء فقد كان المشهد تقشعر له الأبدان وبالغرفة كانت ملك نائمة كالملاك النائم مفارقة للحياة.

اتصل أحدهم بالشرطة ليستدعيها.

جاءت الشرطة إلى موقع الحادث وتحفظت على هناء لمدة أسبوعين على ذمة التحقيق.. وانتظار تقارير الطب الشرعي الجنائي لتحويل القضية إلى المحكمة.

وقد كان قرار المحكمة كالآتي:

حكمت المحكمة حضوريًا على المتهمة هناء بالسجن لمدة عشر سنوات في قضية الدفاع عن الشرف مع الشغل والنفاذ..

رفعت الجلسة

ولكن كان من الواضح أن هناء قد فقدت عقلها مع موت ابنتها فقامت المحكمة بتحويل هناء إلى مستشفى الأمراض العقلية لتوضع تحت المراقبة المشددة.

لتكون هذه هي...

النهاية.....

***

لَستُ وَحدُكِ

أنا أدمن عشق هذا الرجل... إنه ملاكي الذي أهداني الله إياه.. هديتي في هذه الحياة.. ترنيمتي ولحني في الغناء.. عذابي عند اشتياقي له يعني لي الكثير والكثير... كلمة أحبك منه تجعلني أرتفع من أرض الواقع لأعلو معه إلى سماء الخيال.. إنه إنسان بسيط ومتواضع في وسامته ومتألق في مظهره... مفتونة به أنا.. إنه عشقي في الحياة.. هو من جعلني أعجب به وجعلني أشعر أنني محظوظة في أن أكون أنا من أنول إعجابه وان أكون أنا ابنة قلبه.. فأنا لا أتصور أبدًا أن يختفي ولو لوقت قصير بعيدًا عني.. أشعر وكأن قلبي يتوقف عن دقاته.. ويتوقف جهازي التنفسي رويدًا رويدا.. إنه طيب جدًا لدرجة نقاء الماء العذب.. وكريم جدًا لدرجة السخاء... ومتسامح لدرجة تجعلك تظن أنه ملاك وليس ببشر..

لا أكره أن أكون له مطيعة لأوامره.. فهو بالنسبة لي يشغل المحور الرئيسي لحياتي فهو سيد قلبي ورئيس عقلي... مع إنه في الحقيقة لا يقوم بإصدار أي أوامر ولكنني أعتبر رغباته وأمنياته أمر يجب تنفيذه... ولا شك أبدًا في أن طباعه الطيبة هذه جعلتني مهووسة بحبه.. وفي الوقت نفسه لا أنكر أنه هناك صعوبات قد مررنا بها واختلفنا وتشاجرنا ولكننا في النهاية تصالحنا... إن أنفاسه تعطر حياتي وتدفئ جدران قلبي... ووجوده بجانبي يبعث على

وجهي البهجة والسعادة.. فهو أماني وسندي.. هو سر توازني في هذه الحياة.. بعد روحي.

باختصار هو سري وسبب وجود معني لحياتي..

إنه الرجل.. إنه الحماية.. إنه الأمان.. إنه الحنان.. إنه حبيبي.

أنا أنثى حقيقية مكتملة الأنوثة والجمال ولكن حبه لي جعلني أشعر بأنني ملكة جمال هذا الكون.. لا أنكر إعجاب الكثير، من الرجال حولي.. ولكن إعجابهم هذا لا يشغلني.. فأنا في النهاية فزت بقلب أميري..

***

البداية

أنا (ريم) أقيم في إحدى المناطق الراقية بالبلدة. أعيش مع أبي أستاذ عبد الرحيم موظف بإحدى الهيئات الحكومية وأمي مدام زينات ربة منزل وأخواتي الثلاثة (رباب) و (رانيا) و (رامي)

أكبرنا (رباب) ويليها (رانيا) وأوسطهم أنا ومن ثم أصغرنا (رامي).

جميلة جدًا لدرجة تلفت انتباه كل من يراني... أصبح عمري الآن ثمانية عشر عاما، بالطبع الكل يعلم حلاوة تلك الفترة من العمر وخصوصًا للإناث... دائمًا أبي ما كان يلقبني بالفاشلة.. وذلك لأنني رسبت عامين على التوالي بالثانوية العامة..

سببت لي هذه الكربة تدهورا في حالتي الصحية والنفسية.. بدأت أنعزل في غرفتي بعيدًا عن كل من حولي.. فهواجسي كانت لا تتركني أرتاح أبدًا..

أصبحت غرفتي.. هي دنيتي... أو كما تقول أمي وأبي وأخواتي أنها أصبحت سجني.. دائمًا ما كانوا أخواتي يحاولن إخراجي من حياتي الكئيبة هذه.. إلا إنني كنت دائمًا أصرخ بوجوهم قائلة اتركوني وشأني.

كانت غرفتي قديمة بالنسبة لشكل الجدران نوعًا ما... حتى شرفتي كانت أخشابها غير متساوية... كان فراشي يوجد بمنتصف الغرفة وبقية الأسِرَّة الخاصة بإخوتي البنات على جانبي الجدران... وخزانة خشبية قديمة تنتصف الحائط أمام فراشي حتى إن محتوياتها من الملابس كانت لا تصلح للاستخدام نهائيًا ومع ذلك كان أمرا واجبا تنفيذه علينا أنا وأخواتي البنات أن نرتديهم بدون مناقشة.. كانت ملابس تدل على أعمار تفوق أعمارنا أضعاف...

أما عن أخي (رامي) فكانت له غرفة خاصة به وكان حجمها صغيرا جدًا . . بحكم أنه سيصبح شابًا في يوم من الأيام.

كانت هناك لوحة محاطة بإطار ذهبي اللون فوق فراشي.. مرسوم بداخلها عصفور صغير محبوس داخل قفص أخضر اللون يقف عند بابه محاولًا الهروب من هذا القفص...

دائمًا ما كنت أشعر أن ذلك العصفور هو أنا.. فأبي وأمي دائمًا ما يحاوطون علي بحجة أنني جميلة ولا يجوز خروجي بكثرة ولا ظهوري خارج المنزل باستمرار متكرر حتى لا

تلاحظني أعين الناظرين بالخارج.. وكأن جمالي هذا أصبح سر تعاستي... فلا أعلم على ماذا يعاقبني أبي؟

أليس الله جميل يحب الجمال؟

وإذا كان جمالي هذا يحتسب ذنبا بالنسبة لهم.. فلماذا خلقني الله إذًا جميلة...؟

أسئلة كثيرة تجول بذهني وخاطري ولا أجد لها مخرجا واحدا للإجابة... دائمًا ما كانوا أخواتي الإناث ما يغارن مني بسبب جمالي هذا... ويجلسن ينظرن لي ويتعمقون بملامحي ودائمًا ما يتهامسن بينهن وبين بعضهن على انسيابية شعري.. وحُسن جمال ولون عيناي...

لدرجة أننا أثناء تشاجرنا في أي مرة.. يتهمونني بأنني لستُ أختهم.. لأنني لا أشبههم شكلًا ولا صفات...

أخذت أفكر ما هذا الذي أصابني... هل سأعيش بقية عمري هكذا أسيرة لهذه الأسرة التعيسة المشعة بالإحباط إلى صدري وعقلي فوجدت نفسي أهمُ من فراشي وأتجه إلى شرفتي لأشعر بقليل من الأمل.. فشرفتي كانت بالدور العلوي وكانت قريبة من مشاهدة السماء ونجومها المضيئة... فوضعت وشاحي على كتفي وأخذتُ أحلق بناظري إلى السماء وأتأمل في جمال خلقك يا الله.. كم هي جميلة الحياة بالخارج.. وكم هي تعيسة حياتي هنا معهم بالداخل...

وأثناء إطالتي النظر إلي سماء الخالق.. وجدتُ روحي ترتاح وأنفاسي تعود إلى جسدي... وقررت أن أكمل دراستي.. فلا شيء سيسندني بهذه الحياة إلا دراستي وشهادتي...

سأعود من جديد إلى صديقاتي.. سأجتهد حتى أستطيع أن أكون شيئا.. بدلًا من أن أكون لا شيء..

وبدأت أحدث ربي وأناجيه باكية (يا الله أنا لم أعش سنين العمر الجميلة التي يتحدثون عنها.. عوضني يا الله.. وأنر بصيرتي بنور علمك.. وأنر قلبي برضاك عني.. وكن دائما عونًا لي وسند.. فليس لي سواك يا الله)

قررت أن أولد للحياة من جديد وأن كل الذي مضى لا يحتسب من عمري أنا.. بل يحتسب من عمر فتاة أخرى أتت للحياة ثم أعلنت وفاتها ورحلت...

كان يوجد أمام شرفتي شرفة مقابلة أعتقد أنها شرفة مهجورة.. فإذا بي ألمح خيالا لأحدهم وراء زجاج هذه الشرفة فهناك ضوء خافت يعكس الحركة من وراء الزجاج. من الواضح أنه خيال لرجل.. وليست امرأة...

كان دائمًا باب هذه الشرفة موصدا قليلًا وليس مغلقا بالكامل... بحيث إذا وقف من خلفه أحدهم تراه من خلال شرفتي المقابلة..

بـدأت أنـا بالرجـوع الى الـوراء لأدقـق النظـر.. يـا تـرى مـن يكـون هـذا؟

ولكننـي للأسـف لم أسـتطع الوصول لـشيء فقـد اختفى ذلك الخيـال بـدون أن ألمـح من يكـون هو؟

***

الباب الأول

من هنا تبدأ الحكاية.....

كان أبي رجلا متوسط الحال لا يهوى الحياة الاجتماعية المختلطة... كان متعصبا جدًا في كل شيء حتى الدروس الخصوصية.. كان دائمًا ما يردد... أنا نجحت ف دراستي بالماضي بدون دروس... إذًا فعليكم أنتم أيضًا أن تكونوا مثلي تتفوقون بدون دروس مثلي...

أما عن الأم كانت امرأة جميلة... في الخمسين من عمرها.. لا تفهم ما هو معنى الاحتواء لأبنائها.. ولا معنى أن تكون صديقة لهم وقت الشدة قبل وقت الفرح... وخصوصًا في أهم مراحلهم العمرية...

أتى صباح يوم جديد بإشراقته الشمسية على غرفتي كالعادة... وصوت العصافير على حافة الشرفة أجمل مما يكون

فلزقزقتهم ملمس روحاني على أذني.. ربما تكون تلك الشرفة هي الشيء الوحيد الذي يحسن المزاج بهذا المنزل.

تحدثتُ مع أبي في طلبي وهو تكملة الطريق بالنسبة للشهادة الخاصة بي للثانوية العامة.. فكان رده علي بأنها ستكون هذه آخر فرصة وآخر محاولة..

فعاهدته بأنني أستطيع أن أستغل هذه الفرصة وهذه المحاولة بأن أصل من خلالها إلى هدفي.. وأنني سأشرفه وأجعله يتباهى بي أمام أقاربنا وجيراننا ومعارفنا...

فاحتضنني أبي وهو يهمس لي قائلًا.. لكِ ما تشائين يا صغيرتي... فالمهم أن تكوني بأفضل حال فأنا لم أرَ هذه اللمعة بعينيك ولا هذه الفرحة التي ترسم وجهك منذ فترة ليست بقليلة من الزمن...

إذا كان هذا الطلب هو الذي أدخل السرور إلى قلبك هكذا.. فلكِ ما تشائين..

ففرحت أمي وباركت لي وقالت: أنا لن أتنازل عن مجموع لكلية الطب..

فوعدتها بأنني سأفعل ما أستطيع من جهد حتى أجعلها راضية عني وبالطبع كان لأخواتي البنات نفس نظرة السخرية بأعينهم وكأنهن يتحدثن إلي من خلال أعينهن قائلين ستظلين

هكذا طوال العمر فاشلة ولن تفوزي بأي شيء من هذه الحياة سوى لقب جميلة الذي ستدفنين به...

مع العلم أن أخواتي البنات الاثنتين حاصلتين على شهادة متوسطة.. لذلك كانتا لا يتمنيان لي الخير أو أن أسبقهم في المستوى التعليمي..

***

الباب الثاني....

ومن هنا بدأ التحدي....

بالفعل بدأت في التحمس وبدأت أغير وضعية المكتب الموجود بالخارج في منتصف الصالة وجعلته تحت النافذة مباشرة...

وأخذتُ أرص كتبي ودفاتري... وبدأت في القراءة حتى استطعت أن أسترجع من ذاكرتي ما ذاكرته من قبل..

وكان فضل الله علي كبيرًا.. فهذه المرة قد أدخل الله إلى عقلي خزائني المعلومية من الدراسة التي قد ذاكرتها سابقًا وتقريبًا قد حفظت المنهج الدراسي هذه المرة مثل اسمي تمامًا.

وتوالت الأيام والشهور.....

وجاء موعد الامتحان...

ووفقني الله في المادة الأولى ثم الثانية... حتى نهاية آخر مادة.. وكان الله دائمًا معي... أعطاني من فضله... فقد كان يعلم كم أنا هرمت في هذه السنة التي أخذت من وقتي وصحتي وجهدي... وكم كانت نيتي هذه المرة نية صادقة.

أخيرًا...

أخذتُ هُدنة من معركة الامتحانات وحرب المذاكرة والمعلومات المتراكمة التي ملأت رأسي...

كانت أخواتي رباب ورانيا ماهرين في وظائف المنزل مع والدتي.. أما أنا كانت هوايتي القراءة والكتابة والتأمل في طبيعة الكون الساحرة...

وحان موعد الغداء. وحضر أبي إلى المنزل.. أعددنا طاولة الغداء وجلسنا نتشارك الطعام جميعنا إلا أخي الصغير رامي فهو كان يعشق لعب الكرة أسفل العقار.. فكان من عادتنا نتناول نحن الطعام وهو عندما يفرغ من لعبته يصعد لتناول الطعام وحده... فهو كان المدلل لأبي وأمي وإخوتي بحكم أنه الولد الوحيد الذي أتى بعد شوقة مع ثلاث إناث

جلست بعد الاستراحة بمنتصف اليوم مع أبي وأمي. فقد كان إخوتي من هواة القيلولة النهارية..

فكنت أشاهد مع أبي التلفاز ونحتسي الشاي من يد أمي.. وأخذت أقترح عليه أن يعطيني هذه الغرفة المغلقة التي تحتوي على خردة قديمة داخل منزلنا والمجاورة لغرفة إخوتي... وبعد نقاش طال لمدة نصف ساعة... وافق أبي وقال لي: ولكن عليك أنتِ إخراج ما بها فوالدتك تعبة وأنا أيضًا... ولا تطلبي من إخوتك شيئا حتى لا يصير جدالا بينكم... فأنتم دائمًا ما تتشاجرون على أتفه الأسباب.

فقلت له.. حاضر يا أبي ولك ما طلبت

وبالفعل بدأتُ في فتح الغرفة والتي كُنت دائمًا ما أطلق عليها أنا وأخواتي فيما بيننا غُرفة العفاريت والأشباح.. من كثرة ما كانت مغلقة لا تعرف للتهوية شيئا..

كانت مُظلمة جدًا تفوح منها رائحة الأماكن المغلقة العطنة.. رائحة تشبه الأشياء العفنة... ولا يوجد بها مكان لوضع الأقدام.

فكانت أمي وأبي كلما انتهى صلاحية أي شيء أو انتهى عمره الافتراضي.. كانوا دائمًا ما يقومون بوضعه فوق ما سبقه في هذه الغرفة إلى أن تراكمت الى هذا الشكل الذي أمامي...

بدأت أفتح باب المنزل على مصراعيه وأقوم بجر الأشياء واحدة تلو الأخرى حتى كدت أن ينقطع نفسي..

وأخيرًا قد انتهيت من إفراغ الغرفة مما كانت تحتويه.. في هذه الأثناء قد طلب أبي عم عطية حارس العقار...

لينقل الأشياء إلى تاجر الخردة وبيعهم إليه...

أخذ إخوتي في الاستفاقة من غفلتهم... وبدأوا يمرون بأنظارهم على غرفتي الجديدة..

حتى قالت لي أختي رباب... خير إن شاء الله... هل نويتِ الانعزال عنا..

فقلت لها.. حتى أستطيع المذاكرة عندما يريد الله أن يدخلني الجامعة.

فقالت رانيا: وماذا عن فراشك بغرفتنا.

فقلت لها.. سوف أصطحبه إلى غرفتي هذه.

فقالت رباب.. إذن لا تحاولي طلب المساعدة منا.. فنحن سنكتفي بالمشاهدة فقط

نظفت الجدران ثم النافذة.. ثم سكبت الماء وأخيرًا أتممت آخر خطوة في تنظيف الغرفة.

فذهبت بالخارج لأبي وطلبت منه إعطائى بعض المال لشراء لون دهان للحائط حتى أستطيع أن أجلس بهذه الغرفة القديمة..

فضحك أبي ثم قال لي.. وهل تستطيعين دهانها بنفسك..

فقلت له.. نعم يا أبي. فسوف أحاول.

فوافق أبي وذهب هو واشترى لي ما يكفيني من معلبات الدهان من اللون المفضل لي وهو اللون الوردي.. فهو مريح جدا للأعصاب وأيضا لون أنثوي..

دخلت إلى غرفتي واصطحبت السلم الخشبي من الشرفة الخارجية وبدأت في رحلة الطلاء.. لا أنكر الأمر أنني لا أفقه في قصة الدهان هذا شيئا.. وماذا علي بفعله..ولكنني كنت كما أردت أن أستقل بذاتي...

أنهيت جدار تلو الآخر حتى أكملت دهان الغرفة إلى أن تبقى سقف الغرفة فاستأذنت أبي أن يساعدني في طلائه حيث أنني قصيرة القامة.. ولكنه هو يملك قدرا كافيا من الطول..

أخذ أبي يدهن السقف خطوة خطوة وهو يغني مع نفسه بعض المقاطع لأم كلثوم.. واضح أنه كان سعيدا بهذا التغيير..

وأخيرًا انتهينا من كل الغرفة والنافذة أيضًا..

فنقلتُ سريري من غُرفة إخوتي.. إلي غُرفتي الجديدة.. وأخذتُ بعضا من ملابسي وضعتها بطريقةٍ مُرتبة داخل صندوق كان من ضمن الأشياء غير المستخدمة.. الآن أصبحت الغُرفة تُعيد لي الأمل وتدخل البهجة إلى نفسي..

وكان قد حل المساء.. قامت أمي بتجهيز العشاء وأخذت أتحدث أنا وأبي عن النتيجة وموعدها... وأنه يريدني أن أحصل على مجموع يجعله يفتخر بي...

فقلت له.. ما يريده الله هو ما سيكون... لقد فعلت أنا ما علي فعله والباقي على الله.

فضحكت أمي وقالت.. أريد أن أصير أمًا لطبيبة...

قلت لها... أتمنى من الله يا أمي.. فهو على كل شيء قدير.

***

الباب الثالث.....

مرت الأيام والليالي... حتى جاء موعد النتيجة كانت أعصابنا أنا وأبي وأمي على نار..

قام أبي باصطحابي إلى المدرسة وأعطيت مشرف الدور رقم الجلوس الخاص بي... وأخذ المشرف في البحث عن اسمي لد يه

في تلك القائمة الطويلة التي لا تحصى من كثرة ما تحمل من أسماء كثيرة...

فقال لأبي.. للأسف اسم ابنتك ليس هنا لدي.

فقلق أبي.. وقال ولكن كيف هذا.. هل هي من الراسبين؟؟

قال له.. لا فالراسبين قد ظهرت نتيجتهم أيضا.

فقال أبي.. ولكن ماذا سيكون.. وما تفسير عدم وجود اسمها؟

فقال له.. انتظرني هنا سأتوجه لمكتب مدير المدرسة.. وسأعود لك بالرد.

وأثناء غياب مشرف الدور.. أحسست برغبة شديدة في البكاء.. فأنا لم أحتمل أبدا تلك النظرات التي يقذفني بها أبي من اتهام باطل في فشلي هذه المرة...

فقلت له... أبي أنا أجبت كل الإجابات.. ومتأكدة من تمام إجابتي...

فقال أبي... سنرى الآن يا ريم.. ماذا يخبئ لنا القدر.

وأخيرًا بعدما كنا قد فقدنا أعصابنا.. جاء مشرف الدور ومعه المدير...

ثم ألقى المدير التحية على أبي:

- مساء الخير أستاذي العزيز.

فقال أبي: مساء الخير حضرة المدير... لماذا لم أستطيع أن أجد اسم ابنتي ريم في قائمة أسماء الناجحين بالدور الأول.

فرد المدير.... لحصول ابنتك ريم على المركز الثاني على إدارة المدرسة..

فإذا بأبي يبكي من شدة وهول الخبر.. واحتضنني وقال لي مبروك يا ريم.. أخيرًا.. أخيرًا أفرحتيني.. أخيرًا فعلتيها يا ابنتي..

إن شاء الله... كلية الطب كما قالت والدتك..

ثم شكر المدير ومشرف الدور وقاموا هما أيضًا بتهنئتي أنا وأبي

وأثناء تنزهي مع أبي للذهاب إلى المنزل.. تذكرت كم من عمر ضاع ولكن الله كان لا يريد لي أن أنجح في دراستي وأن لكل تأخيرة خيرة...

وكل شيء فعلا بأوانه. لا أنكر الأمر في الحقيقة لقد اختفت كل دموعي بل تبخرت فقلبي يرقص فرحًا.. وعيني أصبحت فجأة جافة...

وصلنا أخيرًا إلى منزلي.. فإذا بأمي تنتظرني هي وأخواتي بشرفة المنزل.. صعدنا وهي واقفة والفضول يقتل عينيها...

فهى لم تستطع الانتظار إلى أن ندق الباب...

ثم قالت.. أخبروني... هل نجحتِ؟

فقال لها أبي... افرحي بابنتك يا أم رباب... فقد صارت طبيبة كما أردتِ..

فأخذت أمي تزغرد وتبكي وتصيح بأعلى صوت لها... كم أنت كريم يا رب.

اللهم لك الحمد... مبروك يا ريم يا ابنتي... احتضنتني بقوة... ثم قبلتني بقوة أكبر.. وقالت لي.. شرفتيني أنا ووالدك وإخوتك يا حبيبتي...

ثم نادت على أخواتي وقالت لهم.. هنئوا أختكم ريم... وافرحوا لها.. فقبلوني إخوتي.. ولكن لا أنكر الأمر فتقبيلتهم وأحضانهم لم تكن كمثل حضن وقبلة أبي وأمي.. لا أعلم لماذا هم هكذا...

أما عن أخي رامي فكان لا يفقه شيئا... هو فقط يتأثر كمثل بقية الأطفال بنا.. فإذا فرحنا.. يفرح معنا..

وإذا حزننا.. يحزن معنا..

مرت هذا اليوم بسلام عابر... وجاء المساء.. فتوجهت إلى غرفتي لأستريح وأغلقت باب غرفتي وتوجهت للنافذة حتى أتحدث كعادتي إلى الله... وأقوم بمناجاته..

كم كانت النجوم صافية في بريقها.. والسحب تمر كسفينة عابرة داخل نهر صافٍ... ولون السماء ككحل العينين القاتم الداكن...

فأخذت أتمتم داخل نفسي بحديث خاص سري وأنا مطلعة إلى السماء.. اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك... كم أنت عفوك كريم وكم أنت عظيم.. كم أنت جابر للقلوب وجابر للخواطر... أحبك ربي.. وأحب كرمك.. وأحب عفوك.. وأحب عطفك علي».

بدأت بإنزال بصري.. لأجد تلك الخيال يقف أمامي بالنافذة المقابلة لنافذتي... ترى من يكون هذا الشخص...

أيعقل أن يكون هذا شبحا... لا أنكر خفقان قلبي أثناء هذه اللحظة.. ولكن أنا ما عاد شيء يرهبني من الآن...

لم أكترث داخل ذهني هذا الأمر كثيرًا.. بل قصدت أن أتغافل عنه.. حتى لا يعكر صفو تفكيري عن خطوتي القادمة وهي تعتبر أهم خطوة في حياتي..

خطوة تنسيق الجامعات... فسوف يصطحبني أبي لملء الاستمارات الخاصة بتقديمي لجامعتي التي تمنيتها.

أتى اليوم التالي بشمسه ونهاره الجديد.. وبدأت أنا في الاستعداد لمهمتي... ألقيت صباحي على والدي وأمي وتناولت فطوري معهم وأسرعت إلى غرفتي لأستبدل ملابسي.. وفي هذه الأثناء كان أبي يجهز أوراقي المطلوبة...

خرجت إلى والدي مرة أخرى وأخذت أمي ترقيني بآيات قصيرة وأدعية مباركة... ومن ثم انطلقنا إلى مكتب التنسيق..

وبالفعل قد وصلنا وانتظرنا دورنا.. واضح أنه يوم شاق وطويل يحتاج لاحتساء بعض القهوة أو الشاي.. فاستأذنت أبي وذهبت لإحضار كوبين من الشاي الساخن من كافتيريا المكان.. إلى أن جاء دورنا... فأخذنا أوراق الاستمارات وقمنا بوضع الطابع عليها.. ومن ثم أخذ أبي البدء في كتابة رغبتنا الأولى.. كلية الطب ومن ثم كلية الصيدلة.. ومن ثم الهندسة ومن ثم الإعلام...

وسلمنا الأوراق وانتظرنا الرد البريدي الذي سوف يصل إلينا في منزلنا في خلال أيام... وانطلقنا عائدين إلى المنزل.

وفي طريقنا تحدثت مع والدي في عدة أمور وكان أهمها أنني أرغب في شراء بعض الملابس للذهاب بها إلى الجامعة.. وأيضًا أتنزه قليلا مع نفسي فأنا ما عدت صغيرة وسوف أعتاد على الذهاب إلى الجامعة وحدي..

فقال لي والدي.. من الآن أنتِ صرتِ عاقلة ناضجة وأنا أراكِ تكبرين أمام عيني... ولذلك سوف أعطيكِ مفتاح حريتك ولكن تذكري هذه الكلمات جيدًا.. عليكِ ألا تسيئي استخدام هذه الحرية.. واعلمي أنني في البداية أو النهاية أب قلبه يرتجف خوفًا على فلذة كبده.. خوفًا عليهم من العالم الخارجي...

***

الباب الرابع.....

مرت أيام ووصل جواب بريدي إلى منزلنا... أوصله لنا عم عطية حارس العقار... استلمته منه أمي وقامت بإدخاله إلى غرفة أبي

وقفتُ أنا أفكر في حيرة... لماذا لم تسلم أمي الجواب إلي؟

شعور الحيرة هذا من أصعب الأشياء... كلما انتابني الشعور بالفشل للمرة الثالثة يتجمد دمي ويتوقف ذهني عن التفكير... فاللهم العون وازرع بقلبي الطمأنينة...

وأخيرًا انفتح باب الغرفة... ما عدت أقوى على الوقوف على قدمي.. فاتجهت إلى المقعد الجانبي لي.. وجلستُ لأستجمع قواي...

قال لي أبي: يا ريم.

- نعم يا أبي

- اقتربي نحوي هنا...

فأخذت بالنهوض ومن ثم خطوت خطوتين فاقتربت منه فضحك أبي ثم قال:

- لماذا ترتجفين هكذا... مبروك يا نور عين أبيكِ كلية طب يا ابنتي ولله الحمد.

لا أقدر على وصف هذا الشعور... شعور متحول كترمومتر ينخفض ثم يعلو فجأة داخل قلب الإنسان يجعلك شخصين في آن واحد.. شخص خائف حزين بائس... وشخص يكاد يجن عقله من هول الفرحة.

بارك لي أبي وأمي واحتضناني.. فاستأذنت أبي وأمي في أن أدخل غرفتي أصلي وأحمد الله على ما أعطاني من نعم متواصلة تتوالى وراء بعضها على حياتي...

وبالفعل توضأت وتوجهت إلى غرفتي وارتديت جلباب الصلاة الخاص بي وبدأت في البكاء وأنا أكبر تكبيراتي.. فشعور الفرح هذا جميل جدًا.. شعور روحاني يريح البدن والقلب ويريح العقل معهم...

فرغت من صلاتي... وتوجهت كعادتي إلى شرفتي... ونظرتُ خارجها أتطلع بالعالم الخارجي... وتذكرت تلك النافذة المقابلة لي... فلم يكن هناك أحد... وكان الزجاج معتم يكسوه الظلام.. فأخذت أمرر عيني على المارة بالشارع

بالأسفل.. فكان يخيل لي أنني سوف أقوم بمناداتهم وأقوم بإخبارهم عن نجاحي وأنني تم قبولي بكلية الطب...

رجعت بنظري مرة أخرى إلى النافذة... وجدت هذا الخيال مرة أخرى.. فحب الفضول جعلني من الممكن فعل أي شيء لأعرف من هذا.. إنسان أم شبح..

فطرأت لي فكرة.. وهي أن آخذ النقود من أبي.. وأستأذنه في أن أتوجه لشراء بعض الملابس الخاصة بدخول الجامعة... وبالفعل بعد مشاورات تمت بيني وبين أمي التي كانت دائمًا تعترضني.. بحجة الناس والوقت.. وكيف... حتى قال لها أبي اتركيها تعتاد على الخروج بمفردها.. فغدا عند ذهابها إلى الجامعة سوف تذهب وتعود بمفردها...

رقص قلبي فرحًا... وأسرعت كالأطفال في ارتداء ملابسي... وبالفعل قد انتهيت من ارتداء ملابسي.. وأخذت معي في حقيبتي هذا المصباح الخاص بمنزلنا في حالة الطوارئ عند انقطاع الكهرباء...

وقبلت يد أبي وانصرفت..

كل ما يجول بذهني الآن هو أن أتجه إلى هذا العقار المهجور وأستكشف ما يخبئه بداخله من أشياء غير معلومة.. حُب المغامرة يقتلني شوقًا... وحب الفضول يسحب من طاقتي لأصل لمعرفة هذا المجهول..

الباب الخامس.....

باب معدني أسود يملأه الغبار المتراكم.... خيوط العناكب المتداخلة لنسج دائرة كبيرة متناثرة في كل اتجاه على جدار الحائط... ظلام كاحل يملأ المكان بأكمله.. أشعلت مصباحي وبدأت في التحسس بيدي على جدار السلم... واضح أن نصف السلالم غير مستوية... يوجد بها شقوق وكسور... كدت أن أسقط على وجهي أثناء صعودي هذا السلم

وأخيرًا وصلت إلى الطابق المقابل لطابقي... باب مردود بدون غلق يملأهُ الغبار... الكشاف لا يظهر لي الكثير من الرؤية الواضحة... ضوء أبيض خافت يدخل من إحدى النوافذ يمتد إلى إحدى الغرف... بحثت على جدار الحائط على زر أشعل منه الضوء.. فأنا متأكدة من وجود ضوء هنا... لأنني دائما ما كنت أرى ضوء خلف هذا الزجاج...

توصلت إلى هذا الزر المكسور وضغطت عليه... يا إلهي ما هذا يا ربي... أغشي علي في هذه اللحظة واستردت وعيي بعد فترة لأجد هذا أمامي...

شاب في كامل وسامته... يحملني على ذراعه يرفعني قليلًا من على الأرض...

- من أنت؟

- اهدئي قليلا.

كيف أنت هنا؟

- استمعي إلي وأنتِ تستعيدي أنفاسك إلى صدرك.

- هل أنت من تقوم بمراقبتي كل ليلة؟

- سأجيبك على كل هذه الأسئلة التي تدور برأسك عندما تهدئين...

- ها أنا قد هدأت.. هيا تكلم.

- أنا عُمر صديق طفولتك أيام المدرسة الابتدائية ابن عمك عبد الجليل صديق والدك..

لم أقدر على نسيانك برغم كل هذه السنين التي مرت.. وبالرغم من أننا تركنا هذا المنزل الخاص بجدي.. إلا أنني كل ليلة آتي إلى هنا لكي أراكِ أو ألمحك من هذه الشرفة.. أو هذه النافذة...

- ولكن لماذا تأتي لتراني؟

- لماذا...!!! لأنني أحبك... ولا أقوى على نسيانك.. فأنتِ حب الطفولة وحب الكبر.. وأنتِ كل الذكريات الجميلة في الصغر...

اشتقت إليكِ يا ريم.. أصبحت ملامحك عن قرب جميلة جدًا.. أشعر بفرحة تسع هذا الكون الآن... أشعر أنني ولدت من جديد..

ثم فجأة تذكرت أنني المفروض أن أشتري بعض الملابس كما قولت لهم بالمنزل... فنهضت فجأة... وبدأت في إزالة الغبار عن فستاني...

فقال لي: ماذا بكِ

قلت له: لقد تأخرت...

- عن ماذا؟

- أود الذهاب لمركز المدينة لشراء بعض الملابس..

- هل يمكنني الذهاب معك...

- ولكن لا يمكننا التنزه سويًا من هنا.. سوف أسبقك إلى زاوية الشارع بالخارج وأنت تلحقني بعد دقائق.

خرجت من العقار أتسلل كالسارقين... وأتلفت بعيني مرة يمين ومرة لجهة اليسار ومن ثم انطلقت بسرعة فائقة

للسرعة الطبيعية لدي حتى وصلت لخارج المنطقة.. وقفت في زاوية أنتظر عمر.. وبعد دقائق وجدته قادما نحوي.

أوقف سيارة أجرة وذهبنا بها إلى منتصف البلدة... وأخذنا الحديث إلى الجامعة وعرفت منه أنه يدرس بكلية الصيدلة وهو الآن في السنة الثانية... وأن والده رجل مسن.. ووالدته قد توفاها الله منذ عام... وأنه هو من يقوم بواجبات المنزل والمذاكرة معًا.. وأن مرض والدته ومن ثم وفاتها جعلوه تأخر في الدراسة عاما واحد..

وعندما علم بدخولي كلية الطب قال لي: ستصبحين أجمل طبيبة في الدنيا..

ها قد وصلنا إلى وسط البلد ومررنا بأحد المحلات واشتريت كل ملابسي على ذوقه هو وتناولنا معًا الأيس كريم.

ثم سألني: ألا تملكين هاتف محمول؟

فقلت له: لا.

قال: لابد أن تشتري واحدا قريبا لأحدثك به.

- سوف أطلبه من أبي.

ثم أخذ من حقائبي البلاستكية فاتورة ورقية وأخرج من جيبه قلما وكتبَ لِي رقم هاتفهُ المحمول وأعطاني إياه.

انصرف كل منا في طريقه إلى منزله حاملًا معهُ همسات الحُب الدافئ بقلبه... جولة سريعة أخذت تعبثُ برأسي.

رأيتّ ريم الصغيرة وهي تلعبُ مع عُمر في المدرسة ورأيت تلك الضفائر التي كانت تصنعها لي أمي بشريطتين بيضاواتين... وكانت تعقدهما على شكل فيونكة... اصطحبني فجأة قلبي إليك يا فارس طفولتي.. عسى الله قد أرسلك لقلبي لتشعرهُ بالحبُ الصادق وتجعلني أتمسك بالحياة من جديد...

وصلت إلى منزلي وأخذت أمرر قطع ملابسي الجديدة على أسرتي... لا أخفي عليكم الأمر.. كما كانت نظرات أختاي لي تربكني وكأنهما يتمنيان أن يمزقا لي ملابسي إربًا إربا... أخذت ألملم قطعي المتناثرة بين أيديهم.. وأضعها في حقائبها..

ومن ثم اتجهت إلي غرفتي... أبحث عنك يا حبيبي... هل ترى بالفعل أنني أحبك... أم أنني أهرب من عالمي المتشابهة أحداثه إلى بين يديك.. لا يهم.. عسى حُبك هذا يفتح هذه الزهرة التي قد ذبلت قبل أوانها...

***

الباب السادس...

نقطة تحول...

ها هو قد أتى أول يوم دراسي جديد... حالة من الفرح تمتزج مع حالة من التوتر... إنه لشيء غريب على عالمي.. قرر أبي أن يوصلني حتى يطمئن علي...

يا للروعة أهذا ما يسمونه بالحرم الجامعي.. ساحة كبيرة جدًا تمتلئ أرضها بعدد هائل من الإناث والذكور... إذا ركزت بنظرك إلى الأعلى تجد الشمس تكسو سماءها وإذا وجهت نظرك إلى الأسفل.. لا تستطيع التركيز من كثرة عدد هذه الأرجل المتحركة...

باب قاعة التدريس.. باب خشبي كبير جدًا لونه بني... يُفتح لكثير من الأعداد الهائلة من الطلبة... الجميعُ هنا يحملون الروب الأبيض الخاص بالتمرين الدراسي.. لاحظت

هـذه الورقـة المكونـة مـن خانـات كثـيرة.. يـا ربي أهـذا هـو جدولنـا... ومـا كل هـذه المـواد المقـررة علينـا...

انتهـت المحـاضرة الأولى وكانـت مجـرد تعـارف بيننـا وبـين الدكاتـرة..

خرجنا للاسـتراحة بالخـارج قليلًا.. فقد كانـت القاعة كادت أن تخنقنـا من كثرة العـدد.. وقلة الهـواء بداخلها...

أخـذت أخطـو خطـواتي ناحيـة تلـك الورقـات المثبتـة عـلى الحائـط... حتـى توقفـت عينـاي عنـد هـذه اللوحـة المعلقـة... وكانـت تحتـوي عـلى هـذه الكلـمات..

مرحبا بك في كلية الطب

ها أنت عزيزي الطالب في

كليـة الطـب بعـد مـا يقـارب اثنـي عـشر عامـا مـن الدراسـة الجـادة والتنافـس

الشـديد.. الآن.. أنـت في كليـة الطـب.. الهـدف الـذي لطالمـا فكـرت في بلوغـه

والوصـول إليـه.. بالتأكيد يخالجك شـعور رائـع لأنك حققت هدفك..

نظام الدراسة بكلية الطب

مدة الدراسة بكلية الطب هي سبع سنوات.

* السنتين الأولى والثانية:

ستقوم فيهما بدراسة جسم الإنسان الطبيعي من النواحي التشريحية والوظيفية والكيميائية والمجهرية.)

* السنة الثالثة:

ستقوم فيها بدراسة جسم الإنسان غير الطبيعي (المريض) من ناحية أسباب الأمراض وكيفية حدوثها، وفكرة عامة عن كيفية علاجها..

* السنوات الرابعة والخامسة والسادسة:

ستقوم أيضا بدراسة جسم الإنسان المريض فيها.. ولكن من الناحية الإكلينيكية أو التطبيقية، وستدرس كل تخصص على حدة..

* السنة الأخيرة (سنة الامتياز) :

هي سنة خاصة للممارسة العملية في مستشفيات الجامعة، حيث تمر على كل التخصصات وفروعها الدقيقة.

بعد هذه السنوات السبع.. أنت الآن جاهز لممارسة مهنة الطب..

أخذتُ أتهامس بكلماتٍ مع حالي... وأنا أقول «يا إلهي ما هذا.. واضح أنني قد علقت سنيني القادمة بالسبع سنين عجاف وستصبح أيامي جافة بلا روح.. ولكنني لم أتمكن من تخزين ما يُسرني لتلك الأيام هذه...

أنهيت أول يوم دراسي مليء بالحشو الدراسي... والتقطت أنفاسي فدرجة حرارة الشمس كانت مرتفعة في هذا الوقت... وأثناء توجهي لباب الخروج رأيتُ عمر منتظر على الناصية المقابلة لباب الجامعة.. كان يرتدي نظارته السوداء التي كانت تجعلهُ يزداد تألقًا... كم كان حبيبي وسيمًا... ابتسم لي وأنا بادلته بعلامات ذهول على ملامحي... اقتربت منه فأخذني من يدي ثم التف ذراعهُ داخل ذراعي... كم كانت دقات قلبي تزداد سرعة... إنها روعة الحُب يا قلبي... لأول مرة لم أخف لم أرتجف لم أحسب حساب ما سوف يحدث إذا لمحنا أحد...

همس إلي قائلًا.. ما أروعك بملابسك الجديدة يا صغيرتي..

- صغيرتك!!!

- نعم فلقد أحببتك وأنتِ صغيرتي... وكبرَ حُبك بداخلي مثلما كَبرتي أنتِ يا صغيرتي...

كم كانت لمساتهُ ليدي تُربكني اشتياقًا وتشعلني عشقًا...

اقتربنا من هذا المطعم الذي يفضله هو لأكلة (الكشري) فهو يسبقني في معرفة هذه الأماكن من قبلي...

بـدأت أوقـن أن أيامي القادمة بـل حياتي بأكملها سـوف تتغير بزاويـة مائـة وثمانـين درجـة... ويجب أن أتمسـك بحلمـي وأضع هـدفي أمام عينـي.. وبـالإصرار والعزيمة سـوف تمـر الصعاب..

***

الباب السابع...

تحقيق الهدف....

مرت الست سنوات بكل ما كانت تحملهُ معها من أوقات عصيبة.. ورياح التوتر.. وساعات القلق.. فقدت فيهم معنى الحياة حرفيًا... فقدتُ فيهم وزني.. ورسخت فيهم عقلي وذهني لكل تلك المواد الضئيلة حجمًا وعددًا... نسيت فيهم النوم ولكنني لم أنسَ فيهم رفيق القلب ومصباح العقل لن أنسى مساعدتك لي يا حبيبي.. لن أنكر أنني لولاك ما كُنت أقوى على تحمل هذا الكم الهائل من الضغط العصبي والبدني.. لن أُنكر أنكَ تحملتني في أغرب حالاتي... كنت دائمًا كلما اقتربت من السقوط تسرع بملاحقتي وتسندني وتقويني على الأيام.. كُنت أنت كبسولتي التي تُعيد لي ثقتي بنفسي وتجعلني أرى أنني أقوى الناس...

وجودك في حياتي لا يُوصف بكلام.. وتقديري لمجهودك معي لا يُكيل بمالٍ ولا كلام..

تفوقت خلال الست أعوام الماضية بدرجة امتياز وهذا بفضل الله علي..

كنتُ أستمتع بمُذاكرتي عن طريق تحميل بعض الملفات من أحد المواقع الخاصة بمواد كلية الطب علي هاتفي الذي كان قد أهداني به أبي عندما حصلت على درجة الامتياز في السنة الأولى من دراستي..

تزوجت أختي رباب من ابن صديق أبي وسافرت معه إلي إحدى البلاد العربية وهي تزورنا كل عام مرة... أنجبت منه أنس وزياد أعشق شقاوتهم وأعشق تفاصيل براءتهم الطفولية...

أما رانيا فتزوجت ابن عمي عن قصة حب.. ولكنها لم ترزق بأطفال حتى الآن..

وقد هداها الله لي بعدما أدركت أنني سأصبح طبيبة وصارت تفتخر بي وسط عائلة زوجها وأصبحت تعاملني بكل احترام وحب حتى إن كل أسرارها تحكيها معي...

أما عن أخي رامي فقد تخرج من معهد متوسط عامين وقدم على سفر بالخارج وسافر للعمل بالخارج...

أما عن أبي الغالي فقد أنهى مدة عمله بالوظيفة الحكومية... والآن صار ملازم المنزل لضعف نظره كلما تقدم به العمر..

والآن ساعة الصفر... ساعة أكون أو لا أكون..

لا أُنكر أنني مررتُ هذه السنة بنوع من التوتر الذي قد يكون سببًا في تراجعي هذا العام عن مستواي الذي تعودتُ عليه...

فمرض أُمي جعل الحياة تتحول للون الأسود بعيني.. ففي خلال سنوات دراستي بالجامعة قد اقتربت علاقتي أنا وأمي ببعضنا البعض أصبحت هي المُقربة إلى قلبي في هذا العالم بعدما كانت علاقتنا ببعضنا مبتعدة بحد الأميال برغم أنها أُمي وأنا ابنتها...

أصبحت أفضفض معها عن كل ما أمر به في يومي.. حتى (عمر) كانت تعلم بما بيننا وكانت تحبه جدًا... وكانت دائمًا ما تدعو الله بأن يجمعنا بنوره عما قريب...

الآن تدور أفكار كثيرة بذهني... هل ستتركيني يا أمي؟

لمن سأفرغ أسراري إذا رحلتِ؟

وكيف سترسم الفرحة شفتاي بدونك... فقد كنتِ أنتِ سبب فرحي وأنتِ من تمسحين دمعي..

اقترب وقت الامتحان وأنا بالي مشغول عليكِ.. استيقظتُ من نومي لأجدك قد استيقظتِ من قبلي..

تسجدين على سجادة الصلاة وترفعين يدك لأعلى لتدعي الله بأن يقف معي في هذه الساعات..

أسمع صوت أنفاسك وأنتِ تلتقطينها بصعوبة..

ومع ذلك تمدين لي يد العون حتى أستطيع تكملة ما تبقى من وقت حتى أحصل على شهادتي الجامعية..

فهي تشعر بالذنب تجاهي.. لمرضها المفاجئ.. فهى تعتقد أنها ممكن أن تكون السبب في تراجعي عن الامتياز هذا العام..

جلستُ بجوارها وقبلتُ يدها واقتربت من صدرها ووضعتُ رأسي عليه... فأخذت تمسح لي بيدها على رأسي وهي تقرأ بهمسات صوتها الناعمة... رُقية شرعية وبعض الآيات من القرآن..

ثم قالت لي: لن أنساكِ من دعواتي.. ركزي يا ريم في الإجابات.. أنتظر شهادتك هذه بفارغ الصبر من سنين.. أريد ان أفرح بكِ أنتِ وعمر الآن عمر قد تخرج ويعمل في إحدى الشركات لتركيب الأدوية... أعتقد أنه بعد تخرجك قد آن الآوان ليطلب يدكِ من أبيكِ...

فتبسمتُ بسمة خجل فقبلتني وهي تضحك ضحكة هادئة صامتة قائلة:

- أنتِ يا بنيتي تذكريني بنفسي أيام صباي كنت أعشق أبيكِ وتمنيت أن أكون له وأن يكون لي.. أنتِ تشبهينني في كل شيء...

ذهبتُ إلي الجامعة بعدما أخذت جرعة الحنان الممزوجة بالأمل والتفاؤل من أمي...

والحمد لله أنهيت اليوم الأول وتوجهت لأقابل عمر خارج الجامعة وجلسنا سويًا داخل مطعم نتحدث فيما سيتم من أمور عند تقدمه لأبي بمفرده فقد صار وحيدًا بعدما قد توفي والده...

مرت الأيام والشهور والحمد لله قد انتهيت من جميع امتحاناتي... ولكن أمي حالتها الصحية تدهورت أكثر...

علمتُ أنها قد تحدثت إلى أبي عن قصة زواجي من عمر وقالت لي إن أبي مرحب جدًا به.. ويعلم عنه وعن أسرته كل شيء بالماضي...

وطلب مني رقمه الهاتفي.. ما كنت أتوقع أن أموري سوف تصير هكذا سلسة وبسيطة...

أعطيت أبي الهاتف الخاص بعمر.. واتصل به...

- ألووو عمر

- نعم أنا عمر.. من معي؟

- عمك عبد الرحيم والد ريم

- أه أهلا وسهلًا يا عمي...

- أهلا بيك يا ابني... ننتظرك غدًا أنا وأم ريم بعد صلاة المغرب لندردش سويًا.

- حاضر يا عمي إن شاء الله

نظرتُ أنا لأبي نظرة حب ممزوجة بفرحة... اقتربتُ منه واحتضنته وقلت له:

- شكرًا يا أبي

- يا ريم أريد أن أطمئن عليكِ مثل بقية إخوتك فلم يعد متبقيا غيرك معنا بالمنزل... ولولا دراستك الطويلة التي قضيتيها بالجامعة.. لكان مكانك بمنزل زوجك وليس هنا بيننا... أسأل الله لكم أن يوفقكم لما يحبه ويرضاه..

ها هو اليوم التالي قد أتى.. واقترب موعد عمرع أبي.. جهزت حالي وارتديت أجمل فستان عندي.. وأخذت أحضر مع أمي بالمطبخ قالب الكيك بالفانيليا وعصير المانجو المثلج... فلدى أمي خبرة بارعة في عمل قالب كيك بامتياز بداية من رائحته حتى شكله وطعمه...

دق الباب بالخارج اتجهتُ أنا لأفتح الباب فقال لي أبي:

- اذهبي أنتِ يا ريم لغرفتك بالداخل لحين أن أحتاجك أنا وأقوم بمناداتك

فهززت رأسي بمعنى حاضر يا أبي...

اتجهت أنا لغرفتي وسندت رأسي على طرف الباب فأنا الفضول كاد أن يقتلني أريد أن أعرف ما يدور بالخارج...

وفجأة وجدت هاتفي يرن... إنه اتصال من عُمر

وضعت الهاتف على أذني لأجد أن عمر يشاركني ما يدور بالخارج معه هو وأبي حتي لا أشعر بالضيق من عدم تواجدي معهم... كم أحبك يا حبيبي...

وكان الحوار كالآتي..

-كيف حالك يا بني؟

-تمام يا عمي وبفضل من الله.

-صرت شابًا كبيرًا أتذكر منذ أعوام كثيرة كنت طفلا صغيرا يلهو بالشارع ويصنع لنا الضجيج وكنت دائمًا ما أناديك يا ولد يا عمر.. ثم ضحكا هما الاثنان

ثم واصل أبي حديثه: والدك رحمة الله عليه كان أخا وصديقا فاضلا عزيزا على قلبي.. أتذكر صلاتنا سويًا بالمسجد وخصوصًا صلاة التراويح بما تحمله من رائحة عطر

لذاكرتي.. وصلاة الفجر المباركة.. وصلاة العيد... هاااااااه (تنهيدة طويلة) أيام وسوف أقابله أنا أيضًا...

-أطال الله بعمرك يا عمي وأعطاك من الصحة ما يكفيك.

-علمت من أم ريم أنك قد توظفت..

-نعم.. توظفت بإحدى شركات تصنيع الأدوية.

-وهل راتبك يكفي لفتح منزل الزوجية.

-نعم يا عمي.. إن شاء الله ما يريده الله سيكون.

قام أبي بمناداة أمي من الخارج: يا أم ريم تعالي رحبي بابننا الثاني.. ونعم الابن ونعم الزوج لابنتنا..

تراقصت نبضات قلبي فرحًا وصرت أتراقص بالغرفة... كادت الفرح تجعلني أفقد وعيي..

ثم قام بمناداتي: يا ريم.. تعالي سلمي على عريسك.

نظرت لنفسي بالمرآة وصححت ملامحي ببعض من البودر وأيضًا وضعت قليلًا من أحمر الشفاه..

ثم اتجهت للخارج معلنة حبي المدفون... وقفت متصلبة في مكاني فوجئتُ بنظرة عمر لي وكأنها النظرة الأولى التي يلقاني بها... كم كانت عيناك تحدثني وانا أفسر كلامها... كنت تقول لي ما هذا الجمال الذي أراه؟ هل تلك الحسناء من نصيبي؟

وأخيرًا قد فزت بكِ يا حسناء... تناسيت أنا وعمر في هذه اللحظة وجود أبي وأمي معنا..

وفجأة قال لي أبي:

- اقتربي يا ريم... فاقتربت منه فأجلسني بالمقعد المجاور له فكنت أنا جالسة على المقعد اليمين وأبي عالأريكة بالمنتصف وعلى الجهة اليسرى عمر أما عن أمي فظلت واقفة حتي نهضت من مكاني وأخذتها من يدها وأجلستها بجواري..

بدأ أبي بالكلام مرة ثانية وهو يضع يده على كتف عمر قائلًا:

سأعطيك ابنتي الغالية الوحيدة القريبة لقلبي.. بلسم جروحي أنا وأمها... عكازي سوف يذهب معك... بسمتنا وعطر منزلنا... سلمتك إياها لك أمانة.. وأوصيك خيرًا بها.. كن لها سندًا وأخًا وقت الشدة.. وزوجًا وقت الحب والمودة...

فدمعت عين عمر ثم قال:

- ريم هديتي من الزمن.. طفلتي وحبيبتي.. عشقتها منذ الطفولة.. وفي شبابي رأيت فيها زوجتي وابنتي.. هي كل عالمي... أعاهد الله أمامك أنني لن أبكيها يومًا... ولو اضطر الأمر لإعطائها حياتي ملكا لها...

فاحتضنه أبي.. ثم قال:

-وماذا يريد أي أب يا بني غير هذا الحب لابنتهِ

الآن سنعلن الخطبة وإتمام الزواج لحين ظهور نتيجة ريم واختيارها للتخصص الذي تريده...

وبالفعل تمت الخطبة وكانت ليلة من أجمل الليالي حيث استأذن عمر أبي في اصطحابنا لسهرة نحتفل بخطبتنا بها بالخارج فاعتذر له أبي نيابة عنه هو وأمي قائلًا:

- اعذرني أنا يا بني.. فصحتي انا ووالدة ريم ما عادت تحتمل الخروج والسهر بالخارج... ولكنك تستطيع أن تصطحب ريم وتحتفلوا سويًا.. فأنا أثق بكما... مبارك عليكما يا أولادي...

ذهبت مع أحمد إلي أحد المولات وجلسنا بمطعم فخم.. وتناولنا أجمل أنواع المشويات... وعلى سبيل ارتدائي لفستان سواريه قدم لنا المطعم ألذ مشروب من الفواكه المختلفة...

ثم توجهنا إلى قاعة السينما واشترى أحمد تذكرتين لمشاهدة فيلم رومانسي أجنبي.... كان طوال الوقت يحمل يدي في يده... لا يريد أبدًا تركها...

أنهينا تلك السهرة الجميلة.. وانصرفنا متوجهين إلى منزلي... صعد معي أحمد وتحدث قليلًا مع أبي قائلًا:

- سأنتظر منك يا عمي موعد تحديد الشبكة وكتب الكتاب معًا... بحيث تكون أخبرت أخواتها لحضور حفل الزفاف.

ثم انصرف مودعًا إياي وأمي وأبي....

***

الباب الثامن...

حُلم العُمر.....

بـدأت أُمـي في تحضـير بعـض المسـتلزمات الخاصة بزفـافي من أطعمـة وصناديـق مشروبات...

ثم أخذتني لنستريح على الأريكة قليلًا..

قالـت لي: خـذي يـا ابنتي هـذا المبلغ أعطـاني إياه والـدك حتى تذهبـي وتشـتري مـا ينقصـك مـن أشـياء خاصـة بجهـازك... فأنـتِ تعلمـين كـم أُعـاني مـن آلام بمفاصـلي بالإضافـة إلى تقدم العُمـر لوالـدك وعيناهُ الـذي لا يسـتطيع الرؤية الواضحـة بهما...

خُذي عُمر وشاركيه في اختيار الأشياء...

واسـمعي مـن أُم ذاقـت مـن تجـارب الزمـن مـا يكفيهـا للحصـول عـلى الخـبرة بالحيـاة...

كوني له بئرا لأسراره... غطاءً يستر به حالهُ... نظارتهُ لرؤية الأشياء بنقاء... دواءه عند الألم...

طبيبه عند المرض... لا تجعليه يبحث عن الراحة خارج بيتك... ولا يشتكي من عدم حُسن مظهرك.

وقبل أن يحتاجك لا تجعليه يبحث عنكِ.. كوني أمامهُ دائمًا.. وإذا كان مزاجه مُتغير وحدثكِ بطريقة غير لائقة... انصرفي عنهُ حتى يأتيكِ هو ويقبل جبينك ويشكو لكِ من تلقاء نفسهِ ماذا حَل بهِ من كرب...

احتضنتني أُمي وأنا مُتتبعة بأُذني صوت همسات وخروج ودخول أنفاس صدرها..

رجعتُ برأسي للوراء ونظرت إليها في قلق...

- أمي واضح أنكِ قد أرهقتِ نفسك في خلال هذين اليومين... أرجوكِ ادخلي غُرفتك واستريحي قليلًا وأنا لن أشتري أي شيء إلا بعد أن أتوجه غدًا لرؤية نتيجة تخرجي.. كل ما أتمناهُ منكِ أن تدعي لي أنتِ وأبي بالحصول على درجة الامتياز أيضًا هذا العام.

- إن شاء الله يا حبيبتي موفقة مثل كل عام... أُريد أن أفرح بكِ في بيتك قبل أن يتوفاني الله.

- أطال الله لي ف عُمرك يا أمي.. لا تتفوهي بتلك الكلمات المتشائمة أمامي مرة ثانية... حماكِ ربي من شر ما يؤذيكِ يا غالية..

رافقت أُمي إلى غُرفتها وجعلتها تمدد جسدها حتى تستريح بجوار أبي...

وخرجت من غُرفتي لأسمع صوت هاتفي يرن.. توجهت إلى المنضدة وأخذت الهاتف لأجده عُمر..

- ألووو...

- حبيبتي.. كيف حالك؟

- تمام في خير حال يا حبيبي...

- جاهزة يا بطلتي.. غدًا الفيصل المنتظر في تعب كل تلك السنين... وبعدها ستكونين أميرتي... قلبي يرقص فرحًا أخيرًا سأجتمع بكِ في بيتنا السعيد...

أُحبك يا صغيرتي بل أحب كل يوم أحببتك فيه وزاد حُبي هذا إلي ان جعلني أشعر بأنني قد ملكت بقلبي كل هذا العالم

- وأنا أُحبك أيضًا يا قلبي..

- ياااه.. أخيرًا سمعت منكِ أُذناي كلمات في الحب تحيي هذا القلب المتشوق لكلماتك الغالية هذه

- اعذرني يا حبيبي.. فأنا دائمًا ما أخجل منك...

- وإلى متى ستظلين خاجلة من عاشقك يا أميرتي هكذا... فقريبًا ستصبحين زوجة لي...

أريدُ أن أسمع منكِ ما يسرُ لي قلبي دائمًا

- حاضر يا حبيبي... فقط أجتازُ هذه المرحلة من الوقت العصيب.. وسأكونُ لكَ كما تريد يا عاشقي..

-أحببتُ أن أسألك عن لون الدهانات الخاصة بمنزلنا ماذا تفضلين لون الغرف؟

- سوف أتفق مع أبي ونأتي معك لإتمام الدرجات وأيضًا لشراء الأثاث.. سوف نجعلهُ يومًا واحدًا حتى لا نرهق أبي في النزول مرتين...

- تمام... اعرضي عليه الأمر وأبلغيني.. ولا تنسي غدًا من باكر سوف أمر عليكِ وسأذهب معكِ للجامعة.. لأول مرة لن نتخفي من أعين الناس وسوف أضع يدك بيدك بدون خوف وسوف أعلنها بأعلى صوت... حبيبتي.

- هههههههههه... مجنون أنت.

- نعم.. مجنونُ ريم... مجنونُ عشقك... مجنون جمالك يا فاتنتي..... أُحبك.

- وأنا أيضًا أُحبك يا عُمر.

أنهينا المكالمة بيننا وتوجهت لأتحدث مع إخوتي عن طريق موقع التواصل الاجتماعي لأعرف منهم متى سيأتون إلى البلدة لإنهاء مراسم زفافي...

واتفقنا على موعد بداية الشهر القادم أنهم سوف يحضرون فأدركت وقتها أنه ما عاد متبقيا على موعد الزفاف إلا القليل... ويجب أن أسرع في إنهاء ما تبقى من أشياء تنقصني كما قالت لي أمي..

في صباح اليوم التالي أتى عُمر إلي باكرًا وكالعادة استيقظت لأجد أُمي جالسة على المقعد تدعو لي وتتمنى لي حدوث كل خير قبلتُ جبينها ويدها وأخذتُ منها البركة وتوجهتُ لأبي فكان يجلس في الشرفة يقرأ الجريدة ويشرب فنجان الشاي الخاص بصباحه مثل كل يوم...

- صباح الخير يا أبي

- صباح الخير يا ريم.. ها هل ستذهبين لرؤية نتيجتك؟

- نعم يا أبي... جئت لأستأذنك أن تدعو لي...

فاحتضنني ومسح على رأسي ودعى لي بالتوفيق.

في هذه الأثناء رن هاتفي... فرجعت بظهري للوراء ثم نظرت من خلال سور الشرفة فوجدت عُمر بنتظرني أسفل وهو يبتسم لي... فنظرتُ إلى أبي بخجل لأجده يضحك قائلًا:

- هل هذا عُمر..؟

فارتبكت قليلًا:

- اااا . . نعم يا أبي هو.

- اذهبي يا بنتي على الأقل سأكون مطمئن عليكِ معهُ إنه نعم الشاب ونعم الأدب... رجل مثل أبيه رحمة الله عليه..

اذهبي يا ابنتي ولا تنسي أن تجعليه يمر علينا في الغداء لندردش قليلًا في أشياء خاصة بكما...

- حاضر يا أبي... وداعًا

اتصرفتُ وأنا الخجل يملأ وجهي من أبي... فقد عودنا أبي على الحرج منه دائمًا وجعلنا نخشاهُ خوفًا واحترامًا...

قابلت أحمد وما أن أمددتُ يدي لألقي عليه سلامي حتى اختطفها ووضعها بذراعه مقربًا إياها من قلبه.

ذهبنا واتجهتُ إلى جامعتي لم أحظ بعددٍ كبير من الأصدقاء لضيق الوقت وكثرة المنهج الدراسي والجدول اليومي.. كانت علاقتنا كزملاء سطحية فقوة الرابطة قد أخذها مني عمر لصالحه... لم أعد أريد أي أصدقاء غيره...

وجدنا تجمهرا عند تلك الزاوية اليمينية بالجامعة... واضح أنه ازدحام قراءة النتيجة...

- عمر قلبي يخفق من ضرباته.

- انتظريني هنا سأقرأها لكِ وأعود إليكِ ثانية.

مر دقائق وإذا بعمر قد أخذ صورة لاسمي بكاميرا هاتفه... (الطالبة ريم عبد الرحيم) امتياز.

أخذت أتراقص وأضحك وأعلي صوتي:

- عمر امتياز يا عمر.. اتصل بأبي وأخبره أنني الآن صرت الدكتورة ريم عبد الرحيم.

أخذ عمر يربت علي يداي فرحًا ثم أخذت عيناه تطلق دموع سراحها.. وهو يهز رأسه بكلمة نعم وأخذ هاتفه وطلب أبي...

- عمي مبروك الآن صرت أبو الدكتورة ريم

-مبروك يا بني أعطيني ريم

- مرحبًا أبي... رزقني الله رضاك أنت وأمي... امتياز يا أبي

- مبروك يا حبيبتي.... تستحقين هذا النجاح.. فأنتِ قد صبرتِ كثيرًا جدًا.. وإذا جاء عوض الله لا يُقدر بوصف يا ابنتي... تعالي يا ريم أنتِ وعمر نحن في انتظاركم أنا وأمك.. لا تتأخرا.

صمم عمر أن نمر على تاجر الذهب ونحن في طريقنا... وفاجأني بخاتم صغير أنيق جدًا...

- هذا هدية النجاح... بعيدًا عن الشبكة يا حبيبتي.

- بارك الله لي في حُبك هذا وزادني بقلبك عشقًا.

ثم انصرفنا متشابكي الأيدي... وقبل وصولنا لباب منزلي قام بحمل يدي إلى شفتيه مقبلًا إياها بلطفٍ هامسًا لي بصوتٍ ناعم يُحرك أمواج بحر العشق داخلي يجعلها تثور: أُحبك يا صغيرتي.

طرقنا الباب... فتحت لي أُمي محتضنة إياي بحب.

- الحمد لله يا ريم عوضكِ الله ب عمر والنتيجة... كافأ صبركِ به خيرا.. تفضل يا بني.. عمك ينتظرك بالداخل...

دخلت أنا وعمر... تقدمت أنا لأقبل يدِ أبي...

- مبروك يا حبيبتي... ألف مبروك...

- الله يبارك فيك يا أبي.

- أهلًا يا عمر يا بني تفضل بالجلوس.

- مبروك لريم يا عمي..

- الله يبارك فيك يا بني... عجلوا من شأنكم لنسعد جميعًا...

- حاضر يا عمي... دعواتك معنا

جهزت أمي الغداء وأخذنا نتبادل الحديث بيننا أثناء تناولنا الطعام.

ثم استأذنا أبي وأمي في الذهاب معنا لشراء مستلزمات منزل الزوجية...

انصرفنا جميعًا والحمد لله كان يوما من أجمل مما يكون برغم ما عانيناه من إرهاق به... إلا أنه كان إرهاقا ممتعا يشعرنا بمعنى الفرحة الحقيقية..

مرت الأيام... وقد أنهى عُمر منزلنا من دهانات وأرضية...

لم يسمح لي ان أرى أي شيء من حدوث تغييرات بمنزلنا... دائمًا ما كان يردد: اتركيني أُفاجئك...

حضرت أختي رباب ومن ثم رانيا.. لم يتبقَّ غير رامي... فمن المعروف أنه دائمًا يأتي على الموعد المحدد بالتمام...

ساعدتني أخواتي ولم يدعوني أرهق نفسي كم كنت سعيدة بروح التعاون هذه منهم.... لقد فعلوا لي كل شيء... وجهزوا أشيائي الخاصة بي بمنزل أبي ووضعوها بصناديق... وكلما أردت أن أساعدهم في أي شيء تمنعني أختي رباب وتقول لي:

- أنتِ أصبحتي ضيفة يا صغيرة... أتريدين أن تظهر عليكِ علامات الإرهاق يوم زفافك؟

- لا.. طبعًا.

- إذن أريحي نفسك... واذهبي واستمتعي بوقتك.

- إذن سأذهب لحجز فستان زفافي أنا وعُمر.

- ستكونين أجمل عروسة يا حبيبتي... فجمالك هذا سيسحر الأنظار يوم الزفاف..

- بارك الله لي فيكِ يا أجمل أخت..

مع حضن يشعرني بالأمان والفرحة..

اتصلت بعمر فقد كان منهمكا في عدة أشياء..

- عمر.. كيف حالك.. أين أنت يا حبيبي؟

-في النادي يا حبيبتي.. أحجز أقرب موعد لنا.

- تمام.. كنت أود الذهاب لحجز فستان الزفاف والكوافير أيضًا.

- تمام.. سأمر عليكِ بعد ساعة.. فأنا أيضًا أود شراء بذلة الزفاف لي..

تقابلت أنا وعمر... وأخذني وذهبنا إلي مكان جميل جدًا يحتوي على اكثر من موديل لفساتين الزفاف..

وأخذت أتبادل في القياس عدة فساتين إلى أن اتفقنا على هذا الفستان.. رقيق جدًا.. هادئ..

- ماذا بك يا عمر؟

احتضنني عمر.. حضن دافئ وصار يبكي فوق كتفي وانا أمسح على شعره...

- أنتِ أجمل من رأت عيني... أنا فزت بأجمل الجميلات قلبًا.. وشكلًا... متى يأتي هذا اليوم.. أشتاق لسماع مأذوننا يردد هذه الجملة لنا، بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير.. الآن أُعلنكما زوج وزوجة... فأحملكِ على ذراعي وأسرع بكِ لأخبئكِ من أعين كل الحاضرين... وأظل محتضنك بقلبي وعيني وحضني... وأعلنها للعالم أجمع... الآاااااااان قد صرتِ ملكي...

- حبيبي... وأكثر من حبيبي.. دعني أمسح لك عينيك حتى أستطيع رؤية جمالها.. لا تدع للدموع فرصة وجود مكاننا... دع للحب فقط مكان يتجول بحرية في حواسنا... فقليل عِندك هو بمثابة كثير عِندي..

كبريق الماس عينيك.. وكخرير الماء صوتك.. كإحساس الحرير المتدلي على شعري كلماتك.. أرجوك قليل قليل علي فما عاد بروحي متبقي إلا القليل.. فهذا الوجه الملائكي لا عيب به.. أهكذا يراك الآخرون؟ أم أن الله سخر لعيناي رؤية

خاصة أمتلكها أنا فقط عندما أراك؟ لقد سخر الله لي حبك أمامي لأرى الكون من منظور قلبي.. ووهبني هديتي إياك فهذا هو مكسب الدنيا عندي.

وكيف لي أن أمحيكَ من عقلي.. إذ كُنت أنتَ ذكرىَ البرِ و البحرِ

كيف لِي أن أغفىَ بنومتي عَنكَ.. إذ كُنتُ أَنامُ كَل يوم من أجلِ أن أراكَ فِي حُلمي

كيف لي أن أكتُب لأحدٍ غيركَ... إذ كانَ عقلي لا يُفكرُ بِأحدٍ غَيركَ ولا حتى قلبي

كيف لي أستحلفُكَ بالذي خَلقكَ.. أن ترىَ عيني غيركَ بالكونِ

فجأة تذكرنا أننا داخل محل الفساتين فبعدنا مسافة صغيرة للوراء ثم ضحكت عينانا.. ثم عُدتُ إلى غرفة القياس وارتديتُ ملابسي ومن ثم انصرفنا.

***

الباب التاسع...

ليلة العمر..

اليوم هو يوم زفافي على حبيب القلب وعشق الفؤاد..

الآن أنا متواجدة في الكوافير أنا وأخواتي... أنتظرُ عُمر حبيبي ليأخذني إلى قاعة زفافنا... أما عن أبي وأمي وأخي رامي.. فهم ينتظروننا بالقاعة لاستقبال الأقارب والأحبة...

أخذت أخواتي رباب ورانيا يلتقطن بعض الصور الجميلة لنا..

كنت بشهادة كل من رأوني أنني أجمل عروسة متواجدة بينهم..

فجأة نادت على اسمي فتاة من داخل المكان لتخبرني بأن عمر قد أتى...

وقفتُ لأضبط فستاني ثم أخذت أقترب من الصالة بالخارج خطوةً فخطوة..

أرى أمامي فارس ببذلة سوداء تبهر العين.. تخطف القلب.. ذو وجهٍ لامع مضيء يبهر القلب... يحمل لي في يده باقة من الورد الأبيض وبمنتصفها وردةٍ حمراء...

مدَ لي يدهُ ثم نظر لي نظرة حب وقال:

- ما هذا الجمال تبارك الخلاق..

ثم وضع قُبلةٍ على جبيني.. ثم حمل ذراعي في ذراعه واتجهنا إلى السيارة والأصوات تعلو بالزغاريد من حولنا..

وعندما اقتربت من الشارع الخارجي أخذ عُمر بوضع طرحة زفافي على وجهي وقال لي:

لا أريد أحدًا غيري يرى هذا الجمال يا حبيبتي.

سيارتنا كانت بيضاء مزينة بالزهور الملونة... جميلة جدًا..

انطلقنا لباب القاعة وجدتُ رامي ينتظرني هو وأبي وأمي وبجانبهما أزواج أخواتي..

عقدَ قراننا المأذون.. وأعلننا زوج وزوجة..

وقعت بيدي ووضعت بصمتي الآن صرتُ لك يا حبيبي.. وأنت أصبحت ملكي..

احتضنت أبي وأمي وأخي واتجهت إلى القاعة ليرحب بي كل الحاضرين

أنهينا ليلتنا الجميلة وانصرف الجميع بعد توديعنا وتمنوا لنا حياة هادئة مليئة بالبركة والحب..

وأثناء خروجي من المصعد حملني عمر إلى باب الشقة.. أخذتُ أضحك وأنا محتضنة رقبته وألتف بيدي حول عنقهِ...

إحساس الطائر عندما يرفرف بجناحيه في السماء ليشعر بمعنى الحرية.

كنتُ لأول مرة أرى فيها شقتي فهذا كان شرط عمر فهو من قام بتجهيزها وجعل أخواتي هن من قمن بتجهيزها معه..

أجمل الإضاءات التي تريح العين.. رائحة عطر رومانسي تنتشر بالأرجاء.. أما عن الأريكة كانت من أرق الأريكات شكلًا ولونًا.. فحبيبي له ذوق خاص رائع لذلك تركت له كل الأمور بدون أي تردد..

اتجهتُ إلى غُرفتي وجدتُ أجمل الديكورات أمامي..

يا ربي ما هذا الجمال... أسرعت إلى عُمر واحتضنته قائلة: أنا سعيدة جدًا.. يكاد قلبي من سرعة دقاته يتوقف.

- هل أعجبكِ ذوقي؟

- جدًا يا حبيبي... أنتَ أجمل هدية هاداني بها الرحمن.

توالت الأيام وجاء موعد ذهابي للجامعة لأنهي أوراقي الخاصة بقصة اختيار تخصصي في مجال الطب.. وقد قررت التخصص في مجال طب جراحة القلب...

توجهت إلى الجامعة وبدأت أتوجه إلى إحدى المستشفيات التي قد أُمرت بالعمل بها...

بدأ العمل في أخذي من حياتي الزوجية وأصبح الجمع بينهما أمرا شاقا.

في الحقيقة كان عمر متعاونا معي جدًا لدرجة أنني إذا اضطررت للتأخر بالمستشفى أعود لبيتي لأجدهُ قام بتجهيز العشاء ومتفهم جدًا طبيعة عملي..

مرَ شهران على زواجنا وبدأت أشعر بإرهاق شديد في بدني.. وإحساس دائم بعدم الرغبة في تناول الطعام...

استشرت أحد الزملاء من صديقاتي في هذا المجال بالعمل فقام بعمل بعض الفحوصات للاطمئنان علي.. حتى أخبرتني بأنني أملك بداخلي نبض صغير لملاكي الصغير..

توجهت مسرعة إلى منزلي قبل موعد مجيء عمر من العمل... جهزت طاولة الطعام المحاطة بالشموع المضيئة وارتديت فستان سهرةٍ رقيق....

ثم جلست أنتظر حبيبي...

هـا هـو صـوت تكـة المفتـاح بالبـاب.. أسرعـت لإطفـاء الإضـاءة ووقفـت بعيـدًا قليـلًا عـن البـاب..

دخل عُمر وأغلق الباب.. ثم وقف مكانه متعجبًا..

ثم قال: ما كل هذا الجمال... حبيبتي أين أنتِ؟

ظهرتُ له.. واتجهت نحوهِ وقبلت رأسه قائلةً :

- أعطينـي يـدك... فمـد لي يديـه فأخذتهـا وقمـت بوضعهـا عـلى بطنـي... ثـم عـدت قائلـة:

رحب بضيفنا الجديد.. لديك زائر بالداخل يرحب بك.

قـال: مـاذا؟ هـل تأكـدتِ؟ يـا الله... معقـول... أنـا سـعيد جـدًا... أحمـدك يـاالله... أنـا سـأصبح أبـا... متـى سـنعلم نـوع الجنـين... متـى سـيأتي لأحملـه وأضمـه بـين ذراعـي.. أحبـك يـا ريـم... أكيـد سـيكون شـبيها لـك... أجمل مـلاك عـلى الأرض.

- اهـدأ يا عمـر... نعم تأكدت أنـا في بداية الشـهور الأولى... وكلهـا شـهور وسـوف تسـعد بـه وببكائـه الـذي سـيمنعك مـن النـوم.. أما عن نوع الجنين تقريبًا في نهاية الشـهر الرابع يا حبيبي..

- هيـا تعـالي واسـتريحي.. لا ترهقـي حالـك.. سـأقوم أنـا بأعـمال المنـزل كاملـةً... يجـب أن تأخـذي أجـازة مفتوحـة مـن عملـك.. لا أريـد لـكِ أي إرهـاق يـا حبيبتـي..

أخذنا نتناول العشاء سويًا.. كانت لحظات من الحب والأمل نمرُ بها... كم هو طعم هذا الحب الذي بيني وبينك يا حبيبي له مذاق خاص...

أعشقك وأعشق تفاصيلك.. وأعشق حنانك الذي تغمرني به كل ثانية أعيش بها معك في هذا المنزل.. أعشق هواءك الذي تتنفسه... وأعشق طفلي الذي أحمله بداخلي منكَ... أنت عشق الحياة يا أنا.

فجأة رن هاتف عمر.. فاذا به أبي..

- ألووو.. مرحبًا عمي كيف حالك..

عمي اليوم علمنا أن ريم!!!!!!.....

ماذا.....!!!!!

سوف نأتي حالًا... سلام.

- عمر ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

- أخذ عمر يمسح على شعري بيديه ثم احتضنني قائلًا: ريم أنتِ مؤمنة بقضاء الله وقدره.. أمكِ في ذمة الله.

-ماذا...؟ لاااااااااااااااا أمي..

سقطتُ أنا مغشية علي... استرددت وعيي بالمشفى..

لأجد أجهزة محيطة بي من كل اتجاه.. ما هذا؟ عمر ينظر لي بالخارج من وراء الزجاج وهو يبكي.. ماذا حدث لي يا عمر؟ لماذا تقف بعيدًا هكذا؟ لكنه لم يسمعني... هو فقط ينظر لي...

دخل الطبيب: مرحبًا يا دكتورة ريم..

ثم رفع معصم يدي حاملًا إياه لأعلى وبدأ في التصنت لسماع عدد نبضات قلبي ثم بدأ يلتفُ برأسهِ جانبًا ليرى تلك الشاشة التي ترسم دقات قُلبي... ومن ثم أخذتُ أنا في الصراخ.. أاااااااااااااامي... اااااااه ياااااا أمي...

فأخرج من جيب البالطو الذي يرتديه حقنة رفع الغطاء عنها ثم سكب ما بها قليلًا قليلًا في ذراعي بالوريد حتى بدأت أرى الرؤية غير واضحة...

عندما استرددت وعيي علمت أنهم قد أنهوا مراسم دفن أمي...

فوجدتهم جميعهم يقفون على النافذة الزجاج ينظرون لي والدموع تكسو ملامحهم.. حتى أبي.. فطلبت من الطبيب أن يسمح لأبي أن يدخل لي الغرفة...

فسمح له الطبيب..

- ريم.. ابنتي.. لا تحزني.. فقد كانت أمك تعاني من مرض القلب طوال حياتها.. ولم نشأ أن نعلن هذا الخبر أمامكم.. فقد

كان المرض يفترس شرايين قلبها يومًا بعد يوم.. ولكن إرادة الله في أن يجعلها تستريح من كل هذا العناء... وواضح أنها تماسكت حتى اطمأنت عليكِ... فقد كانت دعوتها دائمًا.. اللهم أصلح حال ابنتي ووفقها لما تحبه وترضاه... ثم توفني وخذني إليك... وقد استجاب لها ربك...

- حبيبتي يا أمي.... سأشتاق لها يا أبي... كنت أود رؤيتها يا أبي... لماذا جعلتوها تذهب بدون أن أودعها...

- حبيبتي هذا الجهد الذي تبذلينه في البكاء سيجعل هناك خطورة عليكِ.. أرجوكِ يا صغيرتي تماسكي وكوني أقوى... لا تجعلي قلبي يحترق أكثر مما هو يحترق....

- ماذا أصابني يا أبي؟ مل كل تلك الأجهزة التي تحاوطني؟ ولماذا أنا هنا كل تلك المدة؟ أخرجووني من هنا أشعر بأنني أختنق هنا... يا عمر خذني معك.... أخرجني من هنا يا عمر...

أخذ عمر يستدعي الطبيب.. فأتى به مسرعًا.. دخل الطبيب وهو ينظر إلى أنفاسي ثم أعطاني حقنة ثانية لأذهب في النوم مرة أخرى.. فتحت عيني لأجد عمر يجلس بجانبي وحده... فحدثته بصوت مرهق:

- عمر..

- نعم يا حبيبتي.. كيف حالك الآن؟

- ماذا حل بي يا عمر؟

- لا شيء يا حبيبتي مجرد إرهاق بسيط وستكونين بخير.

- ولكن أمي يا عمر..

- شششششششششش..

ثم وضع يده على فمي: أرجوكِ لا تتحدثي في أي شيء يزيد من إرهاقك.

فأخذت دموعي تتساقط كالأمطار.. ثم عاودت الكلام ذهبت بدون أن أخبرها بأنني سأصبح أما... ذهبت بدون أن أودعها... وأقبلها... وأخبرها باشتياقي لها... فقد كنت مقصرة معها طوال المدة الماضية... ليتني رأيتها... ليتني احتضنتها... ليتني ودعتها...

***

الباب العاشر..

وداع الأحبة....

مكثتُ أنا حوالي أسبوع بالمشفي لا أدري ما الذي قد حل بي..

لا أحد يريد إخباري بشيء.. حتى عُمر يبكي بداخله وأصبح وجهه شاحبا.. فهذا ليس بحبيبي.. تُرى هل سأموت... ولكن كيف والجنين بداخلي ينام مطمئنا لوجوده بيننا أنا وعمر... ما ذنبه حتى أموت قبل أن يراني وأراه... هل إذا مُت سآخذك معي وستدفن بداخلي..

يا إلهي ما هذه الأفكار التي تراودني؟

دخلت الممرضة وبدأت في تجهيز الأجهزة بالغرفة.. سألها عمر... أين الطبيب؟

قالت: دقائق وسيمر عليكم

أخذ عمر يقبل يدي وهو يثبت نظره على عيني... وكأنه يشبع عينيه مني...

دخل الطبيب وبدأ في فحص النبض لدي.. ثم بدأ يسألني عدة أسئلة:

- هل لديك في عائلتك مريض قلب من الدرجة الأولى

- نعم أمي.. ولكني لم أعرف إلا متأخرًا.. ولكن لماذا؟

- للأسف قلبك ضعيف جدًا ويحتاج لتدخل جراحي في أقرب فرصة.. وخصوصًا أن حالتك هذه نادرة.

فنحتاج لنقل قلب جديد مكان قلبك هذا.. فشرايين قلبك مقسومة لنصفين.. نصف ممزق.. ونصف مسدود.. وهذه الحالة تعتبر نادرة من نوعها..

ويجب إيجاد متبرع يكون أوشك على الموت.. فيتبرع أهله بقلبه لكِ قبل أن يغادر الحياة..

- كيف؟ لا أنا تمام لا يوجد بي شيء.. فقط هي لحظة وفاة أمي أحسست بإرهاق.. ولكني سأعود من أجل ابني..

- دكتورة ريم.. هذا الطفل لا يمكنكي الاحتفاظ به.. يجب إجهاضه اليوم.. فحالة قلبك لا تحتمل الحمل نهائيًا..

قال عمر: أوافق على أي شيء... الجنين لا يهم.. المهم صحة ريم.

صرخت أنا وأنا أحاول فك قيودي من تلك الأسلاك والخراطيم المحيطة بجسدي من كل اتجاه...

- لا يا عمر لن أتنازل عن ابني... أنا طبيبة وأتفهم ما يقوله الطبيب.. ولكني أعلم أيضًا أنني إذا حرصت على العناية بنفسي سأتجاوز كل مراحل الخطورة..

- لكِ ما تشائين ولكن أنتِ المسئولة في هذه الحالة إذا أصابكِ أنتِ والجنين أي مكروه...

كتب لي الطبيب على خروج مع مراعاة السير على هذه الورقة التي تحمل عدة تحذيرات خاصة بالحفاظ على صحتي أنا وجنيني..

طلبت من عمر أن يذهب بي منزل والدي بعد إلحاح شديد مني..

دخلت على أبي واحتضنته ثم أخذني البكاء الهستيري.. أخذ أبي يهدئ من روعي... فاستأذنته في الدخول غرفة أمي...

دخلت وجلستُ مكان نومتها وأخذت أتحدث معها كأني أراها.. فرائحتها تملأ المكان...

حدثتها أنها كانت محقة في أنني أشبهها في كل شيء..

ملامح الوجه.. وطيبة القلب... وقوة الصبر والتحمل... والآن أحمل مرضها بقلبي... أخذت أشكو لها من الزمن.. وأنه لا يعطي كل شيء.. بل مقابل إعطائه شيئا لنا.. يأخذ أمامه كل شيء.. صرت أبكي حتى ارتفع صوتي.. فدخل علي عمر واحتضنني.. ثم قال:

- ريم... انني أتفهم شعورك هذا.. لا تنسي أنني مررت به من قبلك.. ولكن الحياة أمامنا.. وأنتِ اخترتِ الطريق الصعب.. يجب أن تكوني على مستوى المسئولية.. أنتِ قد وعدتي الطبيب بذلك.. حافظي على وعدك...

مرت شهور الحمل ما بين أوقات مُحاذفة وأوقات عصيبة..

إلى أن جاء، موعد خروج ابني قرة عيني للنور ليرى الحياة من خلالي أنا..

مرت ساعات ولادتي على خير.. فقد كان الله معي في أصعب لحظاتي... حتى استيقظت على صوتك يا عشق الروح يا عمري...

ما أجمل صوت بكائه.. يجعلك تتحمل كل الآلام مقابل تلك اللحظة.. بل تستمد قوة إلهية تجعلك تزداد صلابة وتصر على الوقوف مرة ثانية لتجعله يسعد في الحياة..

- إنه ابننا يا عمر... هل تأذن لي أن أسميه أنا؟

- لك ما تشائين يا حبيبتي.. فأنتِ من تعبتِ في حمله.. ماذا قد اخترتِ لهذا الملاك الصغير.

- أسميته (مالك) فهو قد ملك قلبي...

- ما أروعه اسم... (مالك عمر) جعله الله ذرية صالحة لنا..

***

الباب الحادي عشر

ما بين الضعف والقوة

اليوم أتم مالك حبيبي عامه الأول... تبارك الخالق فهو يشبهني تمامًا... اليوم أعددت حفلة صغيرة تجمعني أنا وعمر ومالك ووالدي...

انتظرنا عمر كثيرًا لم يأتي وكلما حاولت أنا وأبي أن نتصل به.. نجد هاتفه مغلقا..

لا أعلم لماذا قد آلمني صدري هكذا... اشعر أن زوجي قد أصابه مكروه..

ظللنا هكذا حتى صباح اليوم التالي.. فإذا بطبيبي الخاص بحالة قلبي يتصل بي..

- الووو

- مرحبًا يا دكتور أحمد..

- مرحبًا.. يا دكتورة ريم.. كيف حالك؟

- تمام.. بخير الحمد لله.

- دعيني أخبرك أنني قد وجدتُ متبرعا لحالة قلبك... سيتبرع أهله بنقل قلبه لكِ.. وقد اتصلت بعمر ليلة أمس وحضر معي إنهاء الإجراءات الخاصة بالأوراق اللازمة ولكنه قد نفذت بطارية هاتفه.. فإنجازًا للوقت اتفقنا أن أبلغكِ أنا بالحضور إلى المشفى بعد ساعة.. وجهزي حالك لإجراء تلك العملية الجراحية.. فحالة نقل القلب لا تستدعي التأخير..

- ولكن أين هو عمر؟

- عمر!!!!.. ذهب ليختم الأوراق من الجهة المختصة لمثل هذه الحالات... عندما تحضرين سيكون هو هنا لا تقلقي...

اتصلتُ بأختي لتأخذ مني مالك...

مررت أنا وأبي على منزل أختي رانيا وسلمتها مالك ومن ثم ذهبت أنا وأبي للمشفى واستقبلني طبيبي ف غرفته لإمضاء بعض الأوراق بتوقيعي أنا مع احتياجه للبطاقة الشخصية لي.

ثم نادى على ممرضته (علا) لتصطحبني لإجراء بعض الفحوصات اللازمة..

- ولكن يا دكتور... أين عمر؟

- لا تقلقي.. فعمر ينجز الوقت حتى تصيري بأفضل حال بأسرع وقت ممكن..

- وهل سأجري العملية بدونه...

- لا طبعًا.. سيكون معكِ.. ولكن عليكِ الإسراع للانتهاء من الفحوصات سريعًا.. فالتأخير ليس لصالحنا..

اتجهت إلى غرفة أخرى وبدلت ملابسي وارتديت ملابس المشفى.. خضعت لعدة فحوصات طالت لمدة ساعة..

خرجت لأجد أبي فقط هو من ينتظر على المقعد أمام الغرفة بالخارج.. ولكنه كان يبكي...

- ماذا بك يا أبي؟ لماذا البكاء؟

-لا يا حبيبتي.. أنا فقط قلق عليكِ..

- لا تقلق يا أبي... أريد أن أكون بخير لأجلكم.. وأريد أن أعاود عملي... مهنتي كطبيبة... ولكن يا أبي أين عمر.. لماذا قد تركني منذ أمس بدون إخباري بأي تحركات له... فهو لم يفعلها من قبل... الأمر به شيء مقلق... لو كان لديه معارف أو إخوة.. كنت اتصلت بهم.. وسألتهم أين كان منذ ليلة أمس..

- يا ابنتي.. ألم يخبرك الطبيب بأنه منهمك في إنجاز الأوراق الخاصة بعمليتك... وأنه يريد أن يطمئن عليكِ..

– من فضلك أعطني حقيبتي يا أبي.. أريد هاتفي... أريد أن أطمئن عليه..

أخذت حقيبتي من يد والدي وأخرجت هاتفي وكررت المحاولة في الاتصال على عمر.. ولكنه بلا جدوى.. مغلق أيضًا..

صممت على رأيي وقلت لأبي لن أتمم أي أوراق أخرى ولن أخضع لإجراء تلك العملية إلا أن يأتي عمر ويكون بجانبي... وأطمئن عليه..

سمع صوتي العالي طبيبي.. فأتى الي وهو يردد نفس حديثه.. ريم أنتِ طبيبة وناضجة... بمعنى أنكِ تعلمين أن كل ثانية فيها تأخير، لن ننعم بمتبرع آخر إلا في علم الغيب وتؤجل العملية وقتها لأجل غير مسمى... أرجوكِ اطمئني.. عمر بخير... وهاتفه معي بالغرفة.. تركه حتى يتم شحن بطاريته كاملة إلى ان يعود.. هل الآن قد اطمئننتي!!

نظرت إليه في حيرة.. ثم انطلقت معه إلى غرفة العمليات..

كانت بها ستارة بالمنتصف تقسم بيني وبين أحد آخر..

صوت جهاز التنفس لديه يعمل في ذلك البالون أسود اللون الذي ينخفض ثم يعلو في الحجم دليل على عملية التنفس أنها تعمل...

فسألت طبيبي:

- من هو الذي سيتبرع لي؟ أيمكنني رؤيته؟

- لا يا ريم... فرؤيتك له ستوتر أعصابك.. لمجرد التفكير بأنكِ علمت أنه هو ذاك الذي سيعطيك قلبه.. دعينا نبدأ...

- يا دكتور.. كنت أريد أن أودع عمر... فلعلنا لن نلتقي مرة أخرى.. أريد أن ألمس يديه وأقبله..

- عزيزتي.. لا تقلقي.. فعمليتك نسبة نجاحها مضمونة بنسبة عالية.. وهناك كونسلتو من الأطباء ذوي الخبرة في مجال هذه العمليات سيكونون معي.. أرجوكِ هدئي من روعك.. فهذا التوتر لن يفيد قبل إجراء العملية..

.....

أربع ساعات في غرفة العمليات يفصلني عن متبرعي ستارة لينقذ قلبي بقلبه هو...

تم إنهاء نقل القلب بنجاح... أخذت حوالي ساعة إلى أن استرددت وعيي... لأجد نفسي داخل غرفة أخرى وما زال بجانبي ستارة تقسم الغرفة...

دخل الطبيب واطمأن علي... وطمأنني بنجاح العملية..

وأنني الآن تحت الملاحظة حتى تستقر حالتي..

ثم بدأ يتوجه للخروج.. فناديته:

- دكتور أحمد.. أين عمر؟

-دكتورة ريم، أنتِ مؤمنة بالله

- نعم.. ونعم بالله

- ومتفهمة لأمور الدين والعلم

-نعم.. ولكن لماذا كل هذا الكلام

- أما زلت تريدين أ تعرفي من هو الشخص الذي تبرع لكِ بقلبه...

- نعم.. ما زلت أريد.. ولكن أولا أريد عمر

- حالًا.. سآتي لك بعمر..

أزاح الستار الفاصل بيني وبين السرير الآخر.. ثم استدعى المساعدين له بتقريب المسافة بيني وبين السرير الآخر..

ثم قال لي: ها هو عمر..

قلت: ماذاااااااااا!؟ كيف... لماذا... ما ذا فعلتم به

فصممت على نهوضي من السرير.. ولكن هذا كان من أصعب الأشياء... لا يوجد بي قوة..

نهضت برأسي.. لأجده نائما.. شفتاهُ صارت زرقاء.. عيناه.. أصبحت بيضاء مغلقة... تم تغطية جسمه كاملًا.. لا أرى سوى ملامح وجهه.. فصرخت...

- ماذا فعلتم بروحي... لن أتركك... سوف أنتقم منكم..

فاتجه نحوي أبي والطبيب.. ثم قال أبي:

- ريم.. عمرحدثت له حادثة إصطدام سيارة بالطريق وهو عائد إلى المنزل.. فتم نقله إلى المشفى.. وظل فاقد الوعي لساعات.. ثم أراد الله له أن يسترد وعيه فعلم من الأطباء أنه ف خطر وأصبحت حالته بين يدي الله.. وأنهم ليس باستطاعتهم فعل شيء له..

فتمتم بكلمات أنه يريد التحدث للطبيب أحمد وجعلهم يطلبونه من هاتفه... فعندما علم الدكتور أحمد أسرع مهرولًا له... فإذا به يعلم حالته من الأطباء بالمشفى وأنه كاد أن يفارق الحياة... فأسرع طبيبك بالدخول إليه ليخبره أحمد أن يسرع بنقل قلبه لكِ.. قبل فوات الأوان... وقد وقع على ذلك... ويشاء ربك أن يمد في لحظات عمره.. حتى يسلمكِ قلبه...

والآن هو يحمل في كف يده ورقة جعلني أكتبها له بحروف شفتيه هو... وأصر أن يضعها ف يده حاملًا لكِ إياها متشبثا بها... ظل مغلقا يده عليها... ولم يفلتها..

كل هـذا وأنا أتمـزق.. لماذا يا عمـر لم تبلغنـي... أكل الأحباب فارقوني..

ثم أخذت الورقة بيدي المملوءة بالمحاليل ...

«حبيبتـي.. بـل أنـتِ نفـسي.. عاهـدت الله منذ أن خفـق قلبي لـكِ بأننـي لـن أتـركك... والآن قد وفيـت بوعدي لـكِ.. عندما علمـتُ بشـأن رحيـلي.. قـررت أن أسـلمك قلبـي.. أرجـوكِ حافظـي عليـه مـن أجـل ابننـا مالك..

ودائمًا اعلمي أنكِ لستُ وحدِك»

***

كُنتَ أَمسي
وَأصبحتُ حَاضري

المقدمة

بدايةً كنتُ أظنُ أن أجمل مراحل عمري هي مرحلة الثلاثين...

ولكني قد اكتشفتُ أنها بدايةً للعد التنازلي والحقيقة أنه ليس هناك أي شيء يدعى (أجمل سنين العمر) لأنهُ ليس له وقت محدد فنحن من نصنع هذه المرحلة الزمنية بعقولنا وأيضًا لنضوج عقولنا دور كبير هنا.. فبحكمة عقولنا نقوى على تخطى الصعاب.

الجميل في عمرنا هو لحظة نمو القلب فليس كل ما نراهُ هو بالضرورة أن يكون حقيقة تدق له القلوب وترمش له العيون.. هناك أشياء جنونية نمر بها ونعتقدها حقيقة ولكنها في حقيقة الأمر ما هي إلا (سراب العمر).

فعمرنا محطات ولكل محطة مُسمى وشكل ولون ورائحة... فكلما ذهبنا للوراء بعقولنا وشردنا نشتمُ رائحة كل ذكرى قديمةٍ كانت..

وكلما اقترب منا رائحة شبيهة كرائحتها على الفور نتذكرها وتمر أمامنا صورة لها سواء جميلة كانت أو حزينة وربما تكون عادية فكلها مواقف للزمن تُعلمنا وتهمس إلى قلوبنا...

***

(عزيزتي وصغيرتي).....

أعلم جيدًا أنكِ قد جربتِ لوعة العشق ربما مرة واحدة أو أكثر من مرة.. ولكن الذي أعلمهُ أنهُ لكل قصة عبرة عن غيرها وما أعلمه أيضًا أن البداية واحدة ولكن النهاية دائمًا مختلفة . .

كل القصص صفحات مطوية وحب الفضول يقتلنا لنعرف ما تحتويه هذه الصفحات.. كتبنا جميعها مدونة بالحبر الأسود ولكن إحساسها هو من يتحكم في اللون المفروض لكل صفحة داخل كل قصة نكتُبها برونقها وشكلها المختلف...

***

الباب الأول

أبدأ معكم بعمر (تفتح الأزهار)...

أطلقت عليه ذلك المسمى لأنها أول مرحلة ترسم شكل الزهرة وملامح جمالها وتبدأ منها بداية جذب الانتباه لكل من يقوم بالنظر إليها أحيانًا تجد من يلتفت إلى جمالها ويتدرج الأمر إلى أنه يميل يشتم رائحتها ثم يبدأ في لمسها وأخيرًا تأتي مرحلة النهاية وهي قطفها... ولكن لو كانت تلك الزهرة منذ البداية أظهرت شوكها لكان اختلف الأمر كثيرًا وكان بقي الوضع كما هو عليه واستمرت تلك الزهرة في نموها داخل بستانها وسط بقية أزهارها..

- هكذا أنتِ يا صغيرتي...

صوني نفسكِ فالزمان غدار يمكر ويتلون وأنتِ مازلتِ ملاكا صغيرا لا تعلمين عن ذلك المكر شيئا فالعيب ليس

فيكِ ولا في الزمان أيضًا.. بل العيب في جيل لم يفقه من الأهل لدينه شيئًا ولا لشريعته.

جيل لا يعلم عن فترة شبابه شيئا سوى أنه كيف يصبح صيادا وكيف يوقع فريسته في شباكه ليصبح أمام أصدقائه (الملك) صاحب أكبر عدد من الفريسات ويبدأوا في السباق على من فيهم الأفضل ويبدأ كل منهم بسرد قصصه وحكاياته...

والأغرب هنا أنه لا يوجد في قلوبهم أي تأنيب ضمير أو لوم نفس.

- عزيزي:

أنت لست في غابة تفعل بها ما أردت وقتما شئت، ولا داخل حلبة صراع لمن هو الأقوى.

أنت في الحقيقة خُلقت بطلا ولابد أن تظل هكذا استوعب أرجوك ما أقوله لك ف الحياة يا ولدي محطات فافعل بها ما شئت لأنك في النهاية كما تدين تدان.

***

الباب الثاني

في مرحلة منتصف العشرين...

أنا لست ضد قصة صداقة الشاب والفتاة أبدًا ولكن لكل شيء حدود...

أعلم أن في مجتمعنا هذا قد تعودنا على الاختلاط في العمل والمواصلات والوظائف والمدارس وحتى في المطاعم والكافتريات أيضًا فهل هذا كله يعطينا الحق في أن ننسي الأهم لأنفسنا..

فكرامتكِ يا صغيرتي هي تاجُ رأسك.

- فأنت يا عزيزي...

عندما تتقدم لخطبة أميرتك وتتزوجا فستصبح أبا وأنتِ أيضًا يا عزيزتي سوف تصبحين أما.. فسوف يأتي فارسكِ على حصانه يأخذكِ إلى عالمه فكونوا قدوة يتحاكى بها أولادكم وكونوا مثالًا لأقاربكم وكونوا نورًا يضيء لمن حولكم كونوا قمرًا في ظُلمة غيركم..

- كل حرف أنا أكتبه وكل كلمة أضعها هنا في كل سطر عبرت لكم عنه فهو من خلال تجربتي للحياة فأنا كنت في عمركم ذات يوم من الأيام ودرست وتخرجت وتنزهت وتوظفت أيضًا بإحدى الوظائف وعَشقت وعُشقت وكل ما مررتم به ومازلتم تمرون أنا حظيتُ به مثلكم في خزانة حياتي..

فلتسمحوا لي أن أكون في عالمكم على الأقل هنا على سطور أوراقي وتكرموا بقراءة حروفي وكلماتي.

***

البداية

- حقًا تمنيتُ يومًا أن أصير معشوقة حقًا أردتُ منك يا ربي أن تعطيني ما أردته..

توقفت ساعات الكون كله عندك يا حبيبي...

صارت أنفاسي تتهامس بحروف اسمك..

فليلًا كنت تأخذ نصيبك في أحلامي ونهارًا كنت لا أرى من حولي بل أراك أنت في كل من هم حولي.

كنت أنت عالمي إذا حاولت إغماض جفني كنت أراك أنت في ظُلمتي نورًا يحيي بصيرتي..

كنت أتدهور عشقًا عند رؤيتك أمامي..

وأموتُ خجلًا من نظرتك لي.. وأذوبُ منك إذا تلامست أيدينا عند السلام وأصيرُ طفلة من همس كلامك إذا همستني همسة واحدة، حقًا لم أر بالوجود مثلك.. صار نظري مرهونا بك... فأنا لم أعد أستطيع أن أرى في غيابك عني..

نعم يا حبيبي فأنا تنعدم رؤيتي صدقني في غيابك.. أصيرُ امرأة عجوزا هرمة لم تعد تقوى على الحركة..

وتصير شهيتي عن الطعام تكاد تكون منعدمة فلم تعد لحياتي طعم بدونك...

- حتى في صلاتي فلتسامحني يا الله فقد سخرتُ دعائي كله له هو فقط..

فقط تجمعت كل دعواتي في أن يجمعني الله بك..

حتى مرآتي لم تعد تعكس صورتي بل صارت تعكس صورتك أنت كلما دققت النظر إليها أجدك أنت أمامي.

- صرتُ أفكر دائمًا بك.. فيمر العمر يا عمري وأنا مازلت سجينة لعشقك أنت.

حتى في كتاباتي أصبحت أيضًا أسطر سطوري لك، ربما إذا قرأ أحدكم كلامي هذا سيلقبني بالمجنونة فأنتم معذورون لأنكم لم تروه بعيني أنا ولم يحفر في قلوبكم اسمه ولم تحتفظ عقولكم بتفاصيله مثلي.

نعم أقولها معلنة (أعشقك.. أحبك.. وأريدك) خذني إليك إلى عالمك أنت.. فانا لا أريدهم جميعا بل أريدك أنت.

فالعالم يا حبيبي بالخارج أمامي ضباب كامل.. إنما عالمك أنت جنة بنور الحب تسطع.

أنا لا أريدك أن تقولها لي.. بل أريدك أن تسمعني وأنا أعلنها.. فأحيانًا أظن نفسي مجنونة بك، بل أظنُ نفسي ذاهبة إليك حافية القدمين.

حقيقةً إنني أرتدي حذائي ولكن كل ما في الأمر أنني أسير مسرعة مهرولة في طريقي إليك فيأخذ الهواءُ مجراه في قدمي فينعكس إحساسي الطائر هذا بذاكَ.

وأحيانًا أظن أنني عارية من شدة برودة جسدي وأنا أقف أبحث عنك في وجوه الناس حولي..

أتعلم يا حبيبي! قد شابَ شعرُ رأسي ولم أقوَ على نسيانك وصار أبناء صديقاتي مقبلين على الجامعات وأنا مازلت أنتظرك..

- لماذا؟ لماذا تقسو علي هكذا؟ ألسنا قد اتفقنا على أن نسير في الحياة سويًا؟

قد تركتني أنت أمرُ بصعاب الحياة وحدي بدونك.. تركتني أواجه غضب أبي عندما علم بأننا قد أحببنا بعضنا

البعض. قد قدتُ حربًا لم يخضها أحد من قبلي.. ولن يتحملها أحد من بعدي.

قد خاصمني أبي وصار يلتفتُ لي دائمًا بنظرة قسوة.. نظرة كانت تصيبُ قلبي كالرصاصة عشتُ بها سنين بصدري.

سنين من الصمت في منزل أبي تمرُ علينا.. كنتُ أحادثه فقط بعيني.

كانت دائمًا عيني تسأله ماذا قد فعلتُ أنا من ذنبٍ؟

أكل هذا الظلم فقط لأنني أحببت؟؟

أتعاقبني أنا يا أبي أم أنكَ تعاقب قلبي؟

فوالله الذنب ليس ذنبي بل هو ذنبُ قلبي..

كانت دموعي لا تتوقف أعتقد أنني لو كان هناك بئر جاف لكان امتلأ من كثرة بكائي.. والله حتى إني كنت أسميتهُ (بئر الحرمان)

وأنتِ يا أمي؟

قولي لي ما هو ذنبي معك؟

هل توقفت حياتكما على قصة حبي؟

أرجوكى يا أمي اقتلوني إذا كان هذا فيه الراحة لكم..

فأنا سواء هكذا أو هكذا قد متُ من لحظة وجودي سجينة في ذلك المنزل..

-أنا لا أعلم عنه شيئا ربما قد تزوج..

أو ربما سافر.. لكن من المستحيل أنه قد مات.. لأن قلبي ما زال ينبض به.

كنت من الأكيد سأشعر فقلبي سيخبرني إذا أصابه مكروه..

كثير من الأفكار تحومُ داخل رأسي لا أجد لها جوابا!!

هو فقط من استطاع أن يشاركني وحدتي، ذلك هو (قلمي) صار يكتب ويكتب ويكتب..... دون أن يكل أو يمل.. هو فقط من شاركته سري.. ولماذا أسميه سرا؟

فقد أشهدت الله قبل أن أشهد العالم على حبي لك.

أين أنت يا عزيز القلب؟

أين أنت يا دواء الروح؟

مرت أيام ولم أعد أظهر حزني أمام أبي وأمي كما بالسابق وذلك لسوء تدهور حالتهما الصحية وتقدمهم بالعمر..

وأصبحت حياتي تدريجيًا تبدأ في الرجوع إلى الحياة الطبيعية كما كانت عليه.

لم يمر الكثير على مرض أبي.. أحداث قليلة وتوفي أبي وترك لنا الحزن مكانه نتشاركه أنا وأمي وحلَ الصمت على المكان.

لم يمر الكثير حتى رحلت أمي إليه..

لم أُنكر أبدًا أنك كنت سببًا في تفريقنا طوال السنين الماضية.. فقد كنت قبل أن أعرفك أسعد ابنة بالعالم لأجمل أب وأم بالعالم..

مرت أيام وصرتُ وحيدة وبدأت أشعر لأول مرة بمعنى الوحدة الحقيقي.

أصبح عمري اليوم خمسة وثلاثين سنة لم أحظَ في هذه الحياة منذ تاريخ معرفتك إلا بالقليل من السعادة وكثير من الحزن.

أعتقد أنك أيضا أتممت الثالثة والأربعين من عمرك من الأكيد قد صار لديك بعض الخصل البيضاء بشعرك لابد أنه يليق بك ذلك اللون الأبيض بخصل شعرك.

ومن الممكن أن تكون قد صرت بدينًا قليلًا.. أعلم أنك تعشق الطعام الدسم..

حبيبي ما زال رائحة عطرك في أنفي، هل صار نظرك ضعيفا قليلًا فقد تكون من الممكن قد ارتديت نظارة.

أرجوكم وأنتم تقرأوا كلماتي هذه لا تسخروا مني ولا تتسرعوا بالحكم علي، ولا تتفاوتوا صفحاتي سريعًا لمعرفة النهاية.. فكل شيء باوانه يكون أفضل..

دعوتُ الله مرارًا وتكرارًا على أن ألقاك وأصير زوجة لك ولو لمدة قصيرة.. فقط أريد أن أعرف كيف هو ذلك الشعور وأنا مكتوب اسمي بجانب اسمك في سطر واحد ويختصرهم بين قوسين كلمة (زوجة) و (زوج).

كم هو جميل مظهر تلك القطعة المستديرة وهي في إصبعي بيدي اليسار محفور بها بالداخل اسمك.. كم هو جميل ذلك اللون الأبيض الملائكي في فستان زفافي وأنا أرتديه..

فمنذُ خمس عشرة عامًا صار حديث بيني وبينك أتذكره إلى الآن جيدًا.. وكأنه كان ليلة أمس.

«كنا قد اتفقنا إننا بعد زواجنا سننجبُ أطفالا كثيرة وأولهم اسمًا (مهند) وثانيهم (تقى).

يا له من إحساس رائع وأنا أسير معك أمام أعين الناس وأحمل في بطني ملاكا صغيرا منك..

لا أنكر ذلك الشعور أبدًا.. فإنه يراودني دائمًا كلما غفت عيني..

فشعاع حُبك له مفعول سحري على قلبي قد أطلقت أنت سهامه علي ورحلت....

***

الباب الثالث

بدأت أخرج من قوقعة منزلي إلى العالم الخارجي

ياااه رأيتُ أناسا كثيرين حولي.. أتعلم لقد تغير العالم كثيرًا أو ربما كنتُ أنا مغمضة العينين كثيرًا الأجمل في خروجي هذا هو أنني سوف أبدأ برحلتي (رحلة البحث عنك)

-اليوم عيد ميلادك أذكره جيدًا...

كل عام أشتري لك هديتك.. فهذا اليوم له تاريخ مقدس محفور بقلبي...

فهذه هديتك السادسة عشرة وسوف أخبئها كالعادة في صندوق غرفتي.. أعلم أننا سنلتقي يومًا ما وأسلمك ذلك الصندوق بنفسي فقد غلفتهم جميعهم بنفسي وبنفس اللون المفضل لديك.. فأنا أعلم أنك تعشق هذا اللون لون نقاء قلبك (الأبيض).

-بالفعل اتجهت إلى بيت إحدى صديقاتي وهي تقيم في أحد الأحياء الشعبية.. تدعى (نور) كانت رفيقتي في المرحلة الإعدادية كنت أعشق منزلهم جدًا لدرجة أنني كنت أقضي فيه معظم أوقاتي أثناء دراستي.

اقتربتُ من باب منزلها.. وضغطت على زر الجرس فتحت لي طفلة صغيرة فسألتها عن اسم صديقتي..

قالت: هل تقصدين أمي؟

ثم نادت عليها: أمي..أمي.

خرجت علي نور وكانت ملامح الحزن قد احتلت أركان ملامحها ثم قالت لي:

- من أنتِ؟

قلت: كيف حالك يا نور أنا (ليلى).

قالت: ليلى من؟ ليلى يحيى؟

قلت نعم وأنا أبتسم وأهز رأسي.. رحبت بي واحتضنتني ثم طلبت مني الدخول.

نسيتُ أن أخبركم باسمي فقد قلتُ أترككم مع أحداثي تعرفوه.. وأيضا اسم حبيبي سوف تعرفونه من الأحداث التالية.

- أخذنا الكلام والوقت قد مضى سريعًا وعلمت من نور أن والديها قد توفيا مثلي تمامًا.. بالإضافة إلى أنها منفصلة عن زوجها وتقيم هنا في بيت والديها بأطفالها ثم تداولنا أرقام هواتفنا وودعتها وانصرفت.

تعبت اليوم من خروجتي هذه.. عدتُ إلى من منزلي وأغلقت باب الشقة جيدًا ووقفت أتأمل صورة أمي وأبي على الحائط بالصالة وأخبرتهم عن يومي كيف كان فأرواحهم تكمن معي.

ثم دخلت إلى غرفتي وأشعلت الضوء واتجهت إلى الصندوق الخشبي ذي اللون البني الموجود على الأرض بجوار فراشي.. وأخرجت منه صورتك القديمة تلك التي أعطيتني إياها عندما كنا في الحديقة..

فقد استطعت أن أخبئها كل تلك السنين بعيدًا عن عين أبي وأمي بدون أن يعلموا عنها شيئًا، أتعرف يا حبيبي لماذا؟

لأنني كنتُ أحملها دومًا بجوار قلبي فهذا هو المكان الوحيد الذي لم يستطع أحد الوصول إليه.

أتعلم أن صورتك هذه تهون علي ليالي كثيرة من الوحدة؟ وتمنع عني أفكارا بالليل تأتيني من هذه الغرفة، تلك الغرفة المقابلة الخاصة بأبي وأمي فهي أصبحت مظلمة منذُ رحيلهما عني..

أحيانًا يخيل إلي أن هذه الغرفة تبكي على فراقهما.. حقيقة الأمر أنا التى تبكي على فراقهم.. فقد أصبحت من بعدهم وحيدة أكثر من اللازم.. فأنا ما عدتُ أملك بالحياة أحدًا لا من قريب ولا من بعيد..

في الحقيقة لي خال واحد بالخارج يعيش في (كندا) لا أعلم عنه شيئا ولا حتى إذا كان سيعود أم لا؟

ولكن كل ما أعرفه أنني أصبحتُ وحيدة بتلك الحياة

فالجيران هنا جميعهم لا يختلطون بأحدٍ.. مجرد إلقاء تحية السلام على بعضنا البعض إذا تقابلنا صدفة ذات مرة.

اقتربت الساعة من منتصف الليل...

دعنا يا حبيبي نطفئ الشموع سويًا

«كل عام وأنت بقلبي.. كل عام وأنت ملكي أنا..

كل عام وأنا قوية بك»

أرجوكم لا تتهامسوا علي وأنتم تقرأون كلماتي.. أنا لستُ مجنونة.. بل أنا عاشقة..

اعذروني ولا تكونوا قاسين مثل الزمان علي، فأنا لم يعد لي غيركم يستمع لي الآن..

-في نهار اليوم التالي استيقظت من نومي وجهزتُ فطوري الذي تحبه أنت جُبن وخبز وكوب حليب ساخن.

ثم ارتديت ملابسي فاليوم هو موعد صرف معاش أبي بماكينة الآلي الخاصة بالبنك.

كان يومًا شاقًا مليئًا بالازدحام.. ففي كل مكان أخطو خطوة فيه أقابل أشعة الشمس الحارقة تحاوطني..

أنهيتُ صرف المعاش واتجهت إلى أحد محلات البقالة الكبيرة واشتريت لوازمي.. لملء ثلاجتي ثم عدتُ إلى منزلي مرة أخرى..

قررت أن أصنع غدائي لنفسي.. فمن الواضح أنني قد أهملت حالي كثيرًا في الأيام الأخيرة.

تذكرتك يا أمي وأنتِ توصيني بنفسي..

كنت لا أعلم عن فن طهي الطعام شيئا.

سرحت قليلًا ثم تذكرت أن هاتفي به شبكة إنترنت بحثت عن عدة طرق لإعداد الأكلات ومن ثم بدأت في الإعداد حتى أنهيت كل ما أردت صنعه..

وخرجت إلى الصالة لأستريح على طاولتي المستديرة الخاصة بالطعام لدينا، كم كنتِ ترهقين نفسك علينا يا أمي ولا تتفوهين بكلمة واحدة..

وكنتِ بالرغم من تعبك هذا تطلين علينا بابتسامتك الجميلة..

(رحمة الله) عليكِ يا أمي أنتِ وأبي.

أتعلم يا حبيبي كم كان الطعام رائعا ولكنه لم ينضج جيدًا وأيضًا ملحه كان زائدًا..

لا تنسَ أن هذه أول مرة أحاول فيها أن أطهو طعام مثل ذلك..

جلست أفكر ماذا أفعل في ذلك الوقت؟

فالملل يتمكن مني.. ثم خطرت لي فكرة.. اهاا... سوف أتصفح النت بهاتفي.. فتحت حسابا خاص بي وأسميت صفحتي (كُنت أمسي وأصبحت حاضري)

وفي خلال دقائق ظهر لي أصدقاء جدد.. في الحقيقة أنا لا أعرفهم ولكن لن يخسر قبول طلبات صداقتهم في شيء.

أتعلم يا حبيبي أن عالم الفيس بوك هذا ممتع.

- قررت أن أستريح وذهبت إلى غرفة نومي واستلقيت على فراشي لأخذ قسط كاف من الراحة.. وتأملت سقف غرفتي دقائق..

تذكرت يوم التفات قلبي إليك قبل عيناي فقد كان هذا لقاءنا الأول عندما اصطحبني أبي معه لزيارة صديقه ورأيتك

لأول مرة شابا وسيما مكتمل الرجولة.. تمتلك من الأناقة ما يكفي لجذب أي فتاة فلكحل عينيك الرباني سحر خاص جعلني أتناسى وجود أبي وصديقه بالمكان وأراك أنت فقط تملأ الأركان حولي بدأت أنت أيضًا تسلط عينيك على وجهي..

وكأن بريق عينيك أصبح أمامي كالمرآة أرى جمال وجهي به لأول مرة هكذا فكم أنا جميلة بعينك يا حبيبي..

أحببتُ ملامحي لأجلك.. وعشقتُ الحبُ لأجلك... بدأت عقارب الساعة على وشك انتهاء الموعد بين أبي وصديقه وقد أنهوا حوارهم بجملة وكأن الله جعلها سببا بلقائي بك بقية العمر..

فقال صديق أبي: لا تنسَ قصة البحث عن شخص ماهر يجيدُ الكتابة على جهاز الكمبيوتر ففرح قلبي جدًا لأنني أستطيع الكتابة السريعة بل أنا ماهرة بها وأنهينا سلامنا وذهبنا وأنا أرتحقُ من سحر عينيك ما أستطيع ارتحاقه ليجعلني أستطيع الصبر والتحمل على مغادرتي وبُعدي عنك..

ذهبنا وأثناء الطريق تحدثت مع أبي عن فكرة أن أساعد صديقه ولكن أبي كان متشددا في العادات والتقاليد وأصر على أنه لا يصح أن أتواجد بمكتب يتواجد به الرجال كثيرًا..

فذهبت إلى المنزل وتحدثتُ مع أمي أثناء تواجدها بالمطبخ لإعداد الطعام لأبي ولكنها أيضًا صرخت بوجهي مكررة على

مسمعي لا يصح ولا يجوز فما كان أمامي إلا أن آخذ رقم صديق أبي وأحادثه بصوتٍ متخافت بدون لفت انتباه أبي وأمي لي وأقنعته بأن يتحدث مع أبي بشأني بدون أن يخبره شيئًا عن محادثتنا هذه..

فوافق وأغلق معي الهاتف بجملة ما يريده الرحمن يقدمه بمشيئته...

ليأتي الصباح وأجد أبي يعلو صوته أثناء محادثته بالهاتف وفجأة نادى علي بعلو صوته..

فذهبت إليه سائلةً إياه.: ماذا بك يا أبي؟..

فقال لي: هل أنتِ، واثقة أنكِ تجيدين الكتابة السريعة؟

فقلت له: نعم

فقال لي: إذن جهزي حالك لآخذكِ إلى المكتب عند صديقي فسوف يقوم بتمرينك لديه. فأخذت أرتدي ملابسي بسرعة وأسرعت مهرولة إلى أبي فقد كان يجول بخاطري هل سأجدك هناك يا حبيب القلب أم أن القدر قد كتب لي لُقياك مرة واحدة فقط.

وبالفعل وصلت إلى المكتب كان مكتبًا هادئًا نوعًا ما يمتلئُ بأجهزة الحاسب الآلي بكثرة..

ويوجد به أجهزة تبريد كثيرة أيضًا ومكاتب ومقاعد كثيرة ومن الواضح نجاح هذا المكان لوجود عملاء كثيرة هنا..

أخذ صديق أبي وكان يدعى (سعيد) يعرفني على طبيعة الشغل وأخبرني بأن عدد ساعات العمل ثمانية ساعات باليوم وبأن موعد عطلتي هو الجمعة من كل أسبوع وأخذ مقعدي إلى الوراء وقال لي: اجلسي هنا.. فجلست وفتحت الحاسوب الذي أمامي فبدأت بالاستفسار منه عن ماذا علي فعله وأخذت أبدأ في الكتابة من الملفات التي أمامي وأخذني الانهماك فأنا لم أعتد على مثل هذا المجهود من قبل.

إلى أن أسمع صوت أحد يلقي علي السلام فأقوم برفع رأسي عاليًا لأجدك أنت أمامي بطلتك الوسيمة الباهية..

فسرحتُ بملامحك حتى كدتُ أن ينطق لساني بكلمة (أحبك) ولكنني تماسكت ف اللحظة الأخيرة فتركتني أنت واتجهت نحو مكتب أستاذ سعيد ومكثت عنده بالداخل أكثر من ساعة وعند خروجك من مكتبه أخذت مقعد خاص بالمكتب المتواجد بجواري وأخذت تدقق النظر بي فكلما هممتُ بالتطلع إليك أجدك لا تسحب ناظرك عني..

واقترب موعد انصرافي فنادى عليك أستاذ سعيد موصيًا إياك على توصيلي إلى المنزل وتوصيل سلامه إلى أبي..

في هذه اللحظة كدت أتراقص فرحًا كالأطفال.. فلوعة الحب بداخلي تريدك أن تكون معي..

وبالفعل انصرفنا أنا وأنت وأخذت طوال الطريق تقص علي قصة كفاحك وكم من شقاء قد عانيته منذ طفولتك وعندما اقتربنا من منزلي قلت لي: غدًا هو ميعاد توصيل ملفات إلى عملاء المكتب بالمنطقة المجاورة للمكتب بمصر الجديدة وأنك سوف تعتذر لأستاذ سعيد عن مجيئك غدًا لتنغلق أمامه كل الأبواب حتى يفقد الأمل بإرسال أحد غيري بدلًا عني... فيضطر لإرسالك أنتِ بدلًا عني.. فأقابلكِ أنا بالشارع الخلفي للمكتب..

فوجدت نفسي أهز رأسي موافقةً إياك فيما قلته وصعدت أنا إلى أعلى بدونك..

فقد اعترضتك ومانعتك على الصعود معي بأعلى عند أبي..

لعلمي بالمشاجرة التي كانت سوف تحدث بيني وبين أبي وأمي إذا وجدوك صاعدا معي لأعلى أمام الناس واضطررت لإخفاء توصيلتك هذه عنهما..

وصلت إلى منزلي وتناولت العشاء معهم وجاوبتهم على جميع أسئلتهم بدايةً من كيف كان العمل؟ متى ستستيقظين غدًا.. أنهيت طعامي واتجهت إلى غرفتي لأبحث بخزانتي عن ملابس، أنيقة أرتديها بالصباح.. واااااه يا حبيبي لا أدري ماذا

فعلت بي هل ألقيت علي بسحرك فقد صرت أتمتم بحروف لسمك بدون أن أعي أنني أفعل ذلك.. وحضنت ملابسي وخلدت إلى النوم حتى رن جرس منبهي في السابعة صباحًا خرجت خارج غرفتي وألقيت صباحي على أبي الذى كان يجلس ليقرأ عناوين جريدته قبل مغادرته للعمل..

واتجهت نحو أمي لأتناول بعض من الطعام الموجود بالأواني التي أمامها ثم عدت لأرتدي ملابسي وكنت في هذا اليوم كاملة الأناقة هكذا قد رأتني عيناك وهكذا أنت قد قلت لي عندما رأيتني.. قام بتوصيلي أبي كالعادة فصعدت إلى المكتب لأجد أستاذ سعيد يحمل سماعة هاتفه وكان تقريبًا فاقدا أعصابه ومتوترا جدًا..

وجدته خارجا نحوي قائلا: أهلا يا ليلى يا ابنتي.. هل يمكنكِ أن تنقذيني من هول هذا الموقف الذي وضعني فيه أحمد اليوم..

فقلت له وكادت ابتسامتي الخفية أن تفضحني في ظهورها أمامه: طبعا يا أستاذ سعيد تحت أمرك فأخذ يكتب لي بورقة خارجية أسماء العملاء الذين لديهم موعد اليوم لاستلام الملفات الخاصة بهم..

وأخذتُ الورقة بيدي وحقيبتي بيدي الثانية واتجهت مسرعة إلى ذلك الشارع الذي اتفقت عليه معي لأقابلك فيه

لأجدك أمامي شابا طويل القامة ترتدي قميصك الأبيض وبنطالك الأسود وحزامك الذهبس وحذاءك الأسود اللامع كم كانت خصلات شعرك منمقة وكم كانت لحيتك لامعة..

أهٍ من لوعةِ قلبي وأشواقي إليك.. مددت إلي يدك بالسلام فارتعشت يداي عند سلامك فسحبتني منها لنبدأ بخطوات المشي سويًا وأنت ممتلك يدي أخذت تقترب من كتفي قليلًا لأشتم رائحة عطرك الساحرة كم أنت مُنمق في نفسك يا حبيبي لم يأتِ على ذهني أبدًا أن أعترض لمستك ليدي ولا اقترابك من قلبي فقد كان هذا محببًا إلي.

بعد ذلك أنهينا عملنا سريعًا واصطحبتني إلى حديقة مليئة بالزهور قريبة من مكان عملي وأجلستني تحت ظل شجرة عملاقة أتذكر وصفها جيدًا كانت عملاقة مليئة بالأغصان وأوراق الأشجار المتناثرة جلسنا وأخذت تتحدث إلي بالهمس..

ما أعذب صوتك وما أحن كلماتك يا عاشقي، وفجأة قلتها.. أُحُبكِ..

فقلت لك: ماذا؟ فقلت لي: ليلى إني أحببتكِ.. فدمعت عيناي فرحًا وشوقًا لكلمتك هذه..

أبهذه السرعة يا أحمد قد وقعت بحبي..

فصرت أرددها أحبك يا أحمد أكثر منك، وأنت صارت ابتسامتك تملأُ وجهك..

وأنهينا حوارنا وذهبت إلى المكتب وأثبتُ تسليمي للملفات إلى العملاء عن طريق الفواتير التي استلمتها وسلمتها للعملاء وأنهيت يومي ورحلت لأجدك أنت بالأسفل تنتظرني على الرصيف المقابل للمكتب فاندهشت عيناي لرؤيتك مرة ثانية فإذا بك تقترب مني وتمسك بيدي وتقول لي: لم أستطع يا ليلى فغرامك حولني إلى جهاز إلكتروني جهاز تحكمه بيدك أنتِ حركيني كما شئتِ.. افعلي بقلبي ما تشائين فمن اليوم أصبحتُ ملك يدك...

وفجأة استرددتُ ذهني الشارد إليك لتأتي إلي فكرة البحث عنك عن طريق اسمك... فأمسكت بهاتفي وقمت بالبحث وبالفعل قد ظهر لي اسمك بعدما كنت فقدت الأمل في وجودك لتواجد العديد من الأسماء المشابهة لاسمك.

أخذت أحرك الاسماء إلى الأعلى وقت ليس بكثير حتى وجدتك يا الله لقد وجدتك.. لا أصدق عيني.. هل هذا أنت؟

مازلت وسيمًا كما أنت بالرغم من لمعة رأسك هذه أصرتَ أصلعا!

لا مشكلة فهذا لا يمنع أنك ما زلت وسيمًا..

وبالرغم من تلك العلامات التي ظهرت على وجهك والخطوط المرسومة أفقيا وعرضيا على وجهك مازلت وسيمًا.

ولكن لماذا لا أستطيع أن أرى محتوى صفحتك؟

ربما لأنني لستُ من ضمن قائمة أصدقائك!!

ولكن لا مشكلة سوف أقوم بإرسال رسالة لك وطلب صداقة أيضًا...

كتبت له «كيف حالك»

تسارعت دقات قلبي وأنا أرى رسالة تُكتب..

رد علي أحمد: «الحمد لله بخير؛ من أنتِ؟»

لم أضع صورة شخصية لي توضح من أنا.. وأيضا الاسم مستعار..

كتبت: وأخيرا وجدتك، فات الكثير على افتراقنا.. ولكن من المستحيل أن أنساك.

نسيت أن أعرفكم باسم حبيبي..

(أحمد) اسم ذو نغمة رنانة ترن على مسامعي كرقصة سلو رومانسية تخطف قلبي وأنا أراقص حروف اسمك معها.. قرأ أحمد رسالتي وكتب:

«ليلى.. كيف حالك.. أين أنتِ.. طمأنيني عليكِ»

-أنا.. الحمد لله بخير مادمت أنت بخير.

-أخبريني عن أحوالك.. كيف صارت؟

-صارت أفضل وقت محادثتي معك..

توقف أحمد عن الكتابة لا أعلم ما السبب.. خلدتُ للنوم حتى الصباح ولم يرسل أحمد شيئا إلى وقت الظهيرة..

كاد الفضول يقتلني لأجد منه رسالة..

كل دقيقة تقريبًا أنظر بهاتفي ولا أجدك يا أحمد.

ربما أنت مشغول.. ولكنني لن أغضب منك أبدًا.. فدائمًا أخلق لك الأعذار وأجد لك بدلا من العذر ألف عذر...

***

الباب الرابع

-أغربت شمس ذلك اليوم وأيضًا لم يقم أحمد بإرسال رسالة واحدة تطفئ فضولي وتهدئ من انتظاري..

فقمت أنا بالكتابة إليه:

«حبيبي أحمد/ أتذكر لحظات تواجدنا بالحديقة الخاصة بنا.. تحديدًا هنا عند هذه الشجرة العجوز المحفور على مضلعات فروعها بالحفر البارز اسمي أنا وأنت يا رفيق القلب والعمر بوضع هذا القلب ذو السهم الخارجي.. أكتب لك بحروفي المتناثرة التي لا أعلم من أين أبدأ مقدمتي بها ولكنني كعادتي سأترك قلمي يصحبني إلى عالمك ويملأ سطور خطابي إليك كمثل كل مرة أرسلت لك فيها خطابا أطلب فيه عودتك إلى وطني ومن هنا أبدأ رسالتي المائة وواحد.

حبيبى أحمد:

تحية طيبة...

تحية مني إلى نبضات قلبك وبعد.....

يا رفيق العمر ألن تعود إلى وطنك داخل قلبي وتعيد لي بهجتي التي قد افتقدتها في غيابك.. كل يوم جديد يأتي وتمرُ علي شمسه إلى داخل نوافذي أنظر إلى ضوء النهار وألقي عليك صباحي.. حتى عند احتسائي فنجان قهوتي فأنت من علمتني إياه كيف أقوم بتذوقه وكيف يكون احتسائه.. أنظر إلى قاع فنجاني لأتخيل أن ما تبقى من رواسب رشفاتي يتفنن في رسم وجهك أو ربما اسمك المهم أنني أتذكرك في كل لحظة أحياها بدونك يا حبيبي..

أليس كفانا بعدًا.. فالبعاد قد أخفى طعم السعادة عن عالمي.. أتذكر أيام عشقنا وقت المرح واللهو.. أتذكر يا حبيبي!! فقد كنت أثناء حديثي معك أجدك تسلط ناظرك على ناظري فأصير أنا بنصف لسان فتضحك أنت وتقول لي اهدئي يا عزيزتي ماذا بكِ؟

أحببتُ أن أخبرك أنني أستمع إلى أغنيتنا المفضلة المحببة إلى قلبك وعقلك ومسمعك التي كنا نرددها سويًا دومًا وهي للمطربة (فيروز)

«أنا لحبيبي وحبيبي إلي» اااااه يا روح الفؤاد أحاول أن أتناسى من ذاكرتي ذلك اليوم الحزين يوم فراقنا.. عندما

ودعتني وأنت تهمس لعيني بعينيك الجميلتين وكأنك تقول لم يكن بيدي أن أودعك أو أن أتركك.. سامحيني..

فحدثتك بدموع عيني التي كانت ترسم مجرى على خدي كالنهر السائر في اتجاهه إلى مجراه... ومرت أعوام منذ فراقنا أعوام يا عمري لم أرك فيهم بعيني لم ألمس فيهم يدك لم أرتوي من ملامح وجهك.. أعوام لم أسمع فيهم صوتك الساحر على أذناي.. أعوام أقرأ فيهم حروفي إليك فقط..

انتظرت يومًا بأكمله لم يظهر لي رد منك... فعاودت في اليوم التالي بالكتابة إليك مرة أخرى.

«لعل المانع خير..لماذا انقطعت الكتابة منك فجأة أثناء حديثنا»

فكان الرد: ليلى أعتذر منكِ.. أنا الآن بالعمل وعندما أنتهي سوف أرسل إليكِ.. وداعًا.

عدتُ إلى نفسي التي لم يعد لدي غيرها أتحدث إليها..

أخذت قلمي وفتحت أوراقي وبدأت أكتب:

«تجاوزت السادسة والثلاثين وأنا ما زلت داخل قوقعتى أنتظرك والآن أنتظر ردك...

لقد نموت عقليًا و جسديا بما يكفي أن أكفُ عن حبك.. الجميع نضجوا إلا أنت يا قلبي مازلت في مرحلة العشرين من عمرك..

توقف بك العالم عند تلك اللحظة.. لحظة رؤية ذلك من خطف الدقات لصالحه..

وإذا بي فجأة أمسكت بهاتفي وأكتب لك..

«قد تعبت كوني وحيدة بدونك.. حياتي مليئة بأحداث ممزوجة بين الحنين والألم واللوم.

أودُ أن ألتقي بك صدفة فتصطدم بقلبي وأتركه يقوم بتوبيخك بشوقه المميت القاتل..

احذر أن تراني وأنا ثائرة لهذا الحد من الاشتياق فلدي القدرة على تفتيتك إلى كتل يصعب تجميعها من داخل موقد بركان ثائر»

فوجدته يكتب: «حبيبتي.. أفضل الحرب التي أقودها أنا والحرب التي تقودينها أنتِ مازلتِ أنتِ من بالقلب فأنتِ الحبيبة صاحبة ذلك اللقب»

لقد دمعت عيني لا بل بكيت بشدة.. لا بل بفرحة.. لا والله برقصة في قلبي.. لا لا لا.. بل برعشة في جسدي.. وبلهفة لرؤيتك.. أشتاق إليك.. أموتُ شوقًا عليك».

ثم عاودت الإرسال إليه قائلة:

«انتظرتك وقتًا طويلًا كسرعة القطار ولم نتقابل صرتُ الآن في منتصف الثلاثين من عمري..

قد ابيضت خصالُ شعري وهَرمت ملامحي ولم نلتقِ أبدًا..

أصار الفراق جميلا لك، ألم تتق شوقًا لرؤياي يا حبيبي.. ولسماع صوتي وأنا أحدثك عن عشقي لك..

لقد صار الجدار بيننا عاليًا وصار الطريق طويلًا.. ألن تأتي؟ ألن تعود؟.. يا حبيبي.. كن كما تكون وسأظل أنا كما أنا.. أعشق حُبك المجنون.. وأعشق انتظاري لك..

أعلم أنك تستمتع بطريقتك هذه معي.. كعلمي تمامًا أنك تقرأ كلماتي هذه الآن..

ولكن ما لا أعلمه كيف صار حالك الآن يا حبيبي؟

صدمتُ من الرد الذى أتى إلي منه:

«أرجوكِ يا ليلى دعيني ولا تطلبي لقائي أبدًا.. أخجل أن أقابلكِ بعد كل تلك السنوات الطويلة وأنا على هذه الحال..

صدقيني إذا تقابلنا ستلعنين ذلك الحب الذي ربطكِ بي.. وستكرهين كل تلك السنوات التي ظللتِ تعشقين فيها أحمد.. فأنا لم أعد أحمد السابق الذي تعرفينه...

- أرجوك يا أحمد.. أعطني رقم هاتفك.. وموعدا للقاء بيننا.. ثم اتركني أنا من أحكم إذا كنت سأكره كل حب السنين الماضية لك أم إنني سأقوى بك أكثر..»

كتب: هذا رقمي (**********)

إذا كنتِ مصرة على لقائي.. فسوف أنتظرك غدًا الساعة الثامنة صباحًا في مستشفى (علاج الاورام) الدور الثالث.. ثاني غرفة على اليسار.. سوف أغلق الهاتف الآن.. أنتظرك غدا.. وداعًا..

قد جن جنوني وكأن جسدي قد أمسك به تيار كهرباء عابر يا ربي هون علي ذلك الوقت وتلك الساعات المتبقية حتى أستطيع الصبر إلى الساعة الثامنة.

جلستُ بشرفتي داخل غرفة نومي استمر تطلعي إلى السماء طو يلا

سرحتُ بأفكاري إلى أشياء مخيفة يا الله صبرني وأنزل سكينتك علي حتى أستطيع الصبر حتى الصباح.

أتت الساعة السادسة صباحًا فأنا لم أستطع النوم.. ارتديت ملابسي بلهفة وتشوق لمعرفة لماذا هذا المكان بالتحديد لأول لقاء بيننا؟

خرجتُ من منزلي متجهة إلى المسشفى ولا أعرف كيف وصلت قدماي إلى هذا المكان؟

وصعدتُ إلى الدور الثالث ثاني غرفة على اليسار كما اتفقنا أنا وهو..

الآن أنا واقفة أمام الغرفة.. يا الله ما هذا الذي يحدث لي... قلبي سيتوقف..

هناك إحدى الممرضات في نهاية تلك الطرقة الطويلة التي أقف بها..

أوقفتها لأسألها ماذا يوجد بتلك الغرفة؟

فقالت لي ألا تستطيعين القراءة؟

قلت: بلى أستطيع ولكنى أريد أن أعرف ماذا يحدث بالداخل؟

قالت: هذه غرفة خاصة (بأشعة الصبغة) لمرضى السرطان من الدرجة المتأخرة

قلت: هل تستطيعين مساعدتي في معرفة اسم شخص بالداخل أم لا؟

قالت: انتظري هنا وعند انتهائهم سيفتح باب الغرفة وسيقوم كل من بالداخل بالخروج للانتقال إلى غرفة أخرى.. تستطيعين وقتها معرفة من تبحثين عنه إذا كان بالداخل أم لا...

أرجوكِ اذهبي من هنا.. وتوجهي إلى هذه الغرفة التي بنهاية الطرقة..

تستطيعين زيارة من يقربك هناك...

فتركتها وأخذت أقترب من باب الغرفة وكدت أن أفتح الباب..

وقتها قد منعتني تلك الممرضة وثارت بغضبها علي قائلة: ماذا تفعلين هنا؟ ممنوع الدخول؟

أرجوك قفي هنا ولا تفتعلي أشياء قد ألزم أن أتصرف تصرفا غير لائق معكِ قبلها

والله لقد توقف قلبي فانا لم أعد أحتمل التأخير أكثر من ذلك...

بعد انتظار طال لمدة نصف ساعة تقريبًا كدت أن أفقد فيها عقلي...

أعطني الصبر والقوة يا الله حتى أستطيع الوقوف على قدماي...

أخيرًا فتح أحدهم الباب من الداخل خرج منه أكثر من طبيب مكممين الأنف ويرتدون قفازات بيديهم مخلوطة بلون غامق مائل إلى اللون البنفسجي.. وخلفهم أكثر من ممرضة ترتدين مثلهم تماما.. بدأت عيناي تحدق أكثر جاحظة تبحث عنك يا أحمد..

وأخيرًا رأيتُ أحمد...

أكتب إليكم وصفه بدموعي وليس بقلمي..

وقد ابتلت أوراقي من شدة بكائي.. أمامي رجل ذابل العينين لامع الرأس.. رحل عن رأسه ذلك الشعر الأسود الكثيف اللامع..

رحلت عنه ملامحه الملائكية الجميلة..

وجهه كلوحة تصف هيكلا عظميا لأحد الطلاب بكلية الطب للشرح عليها...

حتى حاجبيه لم يعد لهما أثر إلا تحديد لمكانهم فقط، أما عن الجسد فقد هلك وتبقى على هيئة عظام إنسان حي.. أما عن ذراعيه فصارا كخريطة من العروق الممتدة الزرقاء اللون المغطاة بعلامات مثقوبة من كثرة المحاليل..

يرتدي جلبابا قصيرا خاصا بالمستشفى هناك، أطلقت سراح صوتي أخيرًا وناديته: أحمد..!

نظر إلي وهو مدمع العينين كاد أن يسقط من شدة تعبه أسرعت نحوه أمسكتُ به من ذراعه وأسندته من ظهره...

أتعلمون ما هو الصعب في هذا الموقف؟

الأصعب في تلك اللحظة أننا لم نستطع احتضان بعضنا..

أخذتُ أحتضن يديه فصرخ متوجعًا وقال لي: أرجوكِ يا ليلى لا تضغطي على يدي.. فأنا لا أحتمل اللمس ولا الإمساك بهما..

تحرك معي أحمد بخطوة بطيئة تكادُ تشبه طفلًا لم يتجاوز العام ونصف من عمره يتعلم خطواته الجديدة في الخطو على قدميه..

وغتجهنا إلى غرفة استراحته بعد تلك الساعات الشاقة التي قد مر بها..

كانت الغرفة بها أكثر من سرير يوجد عليهم أكثر من مريض حالتهم كمثل حالة أحمد، أجلسته على سريره وقمتُ برفع قدميه حتى يستطيع أن يسترخي على ظهره..

أخذ ينظر إلي ويبكي..

وأنا أيضًا قد حنيتُ وجهي على رأسه وقبلت كل جزء قد مر أمام شفتاي.. فقد توحشته..

ثم جلستُ على الكرسي الجانبي لسريره حتى اقتربت عيني من ذراعه الممتلئ بثقب تلك الإبرة الرفيعة.. أخذتُ أقبل كل ثقب يأتي أمام عيني وكأني أحاول أن أملأ فراغ هذا الثقب بقبلتي.. لعلها تمحو ألمه..

أو لعلني أستطيع أن أسحب وجعه لداخلي حتى أتقاسم معه ما يشعر به من عذاب المرض..

كان يجب أن أكون متماسكة في هذه اللحظة ولكن كيف... ومن أين قد آتي بهذه القوة؟...

أبعد كل هذه السنين عندما ألقاك أجدك هكذا يا سارق الفؤاد؟

تفاجأ أحمد بي وأنا أردد على مسمعه..

«أتظنُ أني لهواكَ أنسى وأرحلُ.. فكيف أنسى أنا الذي به دائمًا أقوى وأصمدُ»

أخذ يمسح رأسي بأطراف أصابعه...

ثم بدأ يحادثني بصوت خافت جدًا.. قائلًا:

«ما كنت أظن أننا سنلتقي.. وأنني إذا قُسمَ لي أن أقابلكِ.. أقابلكِ هنا.. واليوم عند نهايتي»

قلت له: خذ ما تبقى من عمري وكن بخير دائمًا، كن بخير من أجلي..

قال: «أنا وحيد فلم يعد لي صديق إلا المرض، أما زلتِ تصرين علي؟ حتى بعد رؤيتي بقايا إنسان هكذا»

قلت «أنا أيضا كنتُ وحيدة والآن أصبح لدي حبيبي الذي سأعتني به، والله لن أتركك ما دمت حية أرزق والنفس يسير بجسدي»

قال «ألن تفكري في أي يوم أن تتركي ذلك المريض.. وتشعري بثقل نحوه»

قلت وأنا أقبل يده.. «لا والله لن أفكر حتى لو صرتُ عجوزًا فسأكون أنا عكازك في يدك وظهرًا تتكأُ عليه للزمن.. حبيبي كن بخير من أجلي»

حان وقت مغادرة أحمد.. ساعدته في حمل أشيائه واتجهنا مغادرين باب المشفى متجهين إلى منزله نعم أنا لا أنكر ما سوف تقولونه علي هذه اللحظة، فلم يعد لأحمد غيري ضعوا أنفسكم مكاني..

فتح أحمد باب شقته واتجه إلى ذلك الحائط باليسار وأشعل النور ثم ناداني بالدخول...

كانت شقته تصف حال أي شاب أعزب يقيم في منزل بلا امرأة تقوم بواجبات ذلك المنزل وتراعيه...

دخل أحمد إلى غرفة نومه وأنا أرافقه...

قمت بوضعه في سريره وأخذت أنظر إليه متأملة ملامحه التي لم يشأ لي الزمن أن أحفظها جيدًا..

لم يتغير بعيني حتى والمرض يأكل ملامحه..

من الواضح أن أحمد قد ذهب في النوم فقد كان يوما شاقا ومتعبا.. خرجت من غرفته وأنا أتسحب على أطراف أصابعي خوفًا من أن أوقظه..

واتجهت بخطواتي إلى المطبخ وأخذت أدقق النظر داخل ثلاجته وجدتها مليئة ولا ينقصها شيء سوى أن أقوم بتجهيز الطعام منها وأضعه على النار..

أخذت أبحث على هاتفي عن الأكلات المفروض تناولها لنوعية ذلك المرض..

وبالفعل أنهيت طعامه في أقل من نصف ساعة وتركته على الطاولة بالخارج وأخذت أبحث عن ورقة أو أي دفتر أكتب فيه لأحمد لأجد ذلك الدفتر أمامي على هذه الطاولة..

فقمت بفتح صفحاته لأجد مكتوبا هذه الكلمات:

«أهكذا يا حب... كلما نويت الابتعاد عنك أجدك أمامي..

أهكذا يا حب.. فأنا ما أردت يومًا الاقتراب منك ولكنك ظللت ملتصقا بي..

لا تنوي أبدًا على فراقي.. أهكذا يا حب.. قد وضعت قلبي بيدها..

ألم أقل لك دع قلبي معك أمانة ووصيتك عليه.. أهكذا تؤلمني وتبكيني وتأخذني لمكان أعمق من بئر الحرمان...

أهكذا يا حب..

ألم تعاهدني على أن أكون أسعد الناس.. أهكذا أجدني فجأة مع الأموات..»

انتهيت من قراءتي لهذه الكلمات القاتلة..

أخذت أقطع ورقة جانبية وتركتها له مكتوب بها «أعددت لك أكلة بسيطة.. تناولها حتى تستطيع أخذ دواءك.. وعندما تنتهي حادثني..

أحبك..»

غادرتُ منزل أحمد وكان قد اقترب المساء ذهبت إلى منزلي وارتديت ملابسي وأعددت طعامي أنا الأخرى وبدأت في تناوله..

أخذ عقلي يشرد بي في قصتك يا أحمد هل كل هذا الوقت لم تتزوج؟

فقد كبرت في العمر واقترب عمرك من الخمسين.. فكيف يكون لك من الوحدة نصيب مثلي؟

أسئلة كثيرة تجولُ في ذهني أحتاجك لتجاوبني عليها»

أريدك أنت أن تريح عقلي وتجاوبني؟

خلدت للنوم فقد كنت منهمكة من التعب فأنا لم أنم منذ ليلة أمس..

وما أن غرقت في نومي إلى أن رن هاتفي.. إنه أحمد يتصل بي.

- الووو مرحبًا حبيبي كيف صار حالك الآن؟

- بخير والحمد لله صرت أفضل.

- هل تناولت طعامك؟

- نعم وأخذت دوائي أيضًا.. أردت أن أشكرك على مساعدتي اليوم...

- تشكرني!! على ماذا! أنت روحي يا أحمد وهل يمكن لأحد أن يفرط في روحه.

- غدا سوف آخذ أجازة أيضًا من الشركة.. فأنا مازلت أشعر بالتعب..

- أحمد ما هي وظيفتك؟

- أعمل بإحدى الشركات للطباعة الورقية.. منذ اثني عشر عامًا.. لذلك يعطوني ثلاثة أيام بالأسبوع راحة فهم يقدرون نوعية مرضي هذا

حتى أتمكن من إتمام علاجي.. وبالفعل أحمد الله فقد اجتزت شوطا كبيرا من مرحلة علاجي.. هكذا أخبرني طبيبي.

- وهل أنت لم تتزوج إلى الآن.

صمت أحمد لثوان فقلقت وناديته: أحمد.. ماذا بك؟

- نعم يا ليلى

- هل تعبت من كثرة الكلام معي.

-لا.. لا.. أنا فقط سرحت بخيالي لوقت تعارفنا وكم كانت تلك الأيام جميلة كانت تحمل عنوانا للبراءة.. كانت كل لحظة بها تحمل لونا مختلفا عن أيامي هذه.

فمنذ أن رفضني والدك بدون سبب.. فقط لأنني أحببتك وكأن هذا ذنب قد اقترفته أن أتزوج من اختارها قلبي بالحلال..

من بعدها اختفت كل أخبارك ومرت أعوام على فراقنا التقيتُ بفتاة حميدة الأخلاق لمدة قصيرة.. كانت تعمل معي بالشركة وتزوجنا.. ولكن لم يرد الله أن تكتمل سعادتي معها.. فعندما حان موعد إنجابها طفلنا أخذ الله أمانته عنده.

- آسفة على تذكيري لك بتلك الأحداث الأليمة.

- لا عليكِ فأنا لا أنساهم.

- أكمل أنا أسمعك.

- أريد أن أسمعكِ أنتِ.. أخبريني من لحظة ما تركتك إلى أن تقابلنا اليوم.

- يااااااه... لا أريد أن أرهقك في الحديث معي

- لا تقولي هذا فأنتِ لا تعلمي كم أشتهي تلك اللحظات معكِ.. هل تزوجتِ أنتِ أيضًا؟

- لا

- إذَنْ كيف هو حال والديكِ؟

- ينعمون بالراحة من هذه الدنيا

- عفوا لا أفهم ما تقصدين؟

- قد رحلوا وتركوني وحيدة..

ثم اقتحمني البكاء.....

- لا لا تبكي.. اهدئي بالله عليك.. أهذا يعني أنكِ تقيمين في المنزل وحدك؟

-نعم من سوء حظي..

-لا أحد من أقاربك يزورك؟

-ليس لي أي أقارب.. فقط هو خال واحد يقيم بكندا بالخارج ولا أعلم متى سيعود؟؟

- ليلى.. لا تخافي أنا معكِ ومن اليوم لن أتركك لمدة ثانية واحدة، فعلا يا ليلى لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع.. يرفضني والدك وأتزوج من غيرك فيتوفى والدك وتتوفى زوجتي ويشاء القدر أن يجمع بيني وبينك لتشاركيني لحظات

مرضي وأشاركك أنا لحظات وحدتك كم غريبة هذه الدنيا؟؟

لا أنكر عليكم الأمر فقد أصابتني الغيرة عندما قال لي أحمد كلمة (زوجتي) فقد كنت أتمنى أن أكون أنا صاحبة ذلك اللقب..

أعلم أنها قد رحلت ولكني لا أعرف لماذا انتابني الغضب من سماع هذه الكلمة.

أثناء تفكيرى هذا كان أحمد صامتًا، ناديته: أحمد.

قال: قوليها مرة ثانية...

- أحمممد

- ياااه كثيرا يمرون بذكر اسمي على أذني ولكني لم أسمع يوما اسمي بحلاوة نطقه من فمك ولا برقة وسحر صوتك هكذا...

فاحمر وجهي خجلا منه.

- أتخجلين مني أنا يا ليلى؟

- وكيف عرفت أنني قد خجلتُ منك.

- أنا أعرفك جيدا وأتخيلك أيضًا الآن كيف تحمرين خجلا مني.. ماذا إن أخبرتك أنني أريدك غدًا.. نتقابل ونقضي اليوم معا .

- وهل صحتك تسمح بقضاء وقت خارج منزلك؟

- طالما هذا الوقت معك لا يهمني من الحياة شيء سوى أن نكون معا.

- تمام سوف أحادثك بالصباح ونتفق على الموعد.

- أولًا نحن صرنا بالنهار يا أجمل ليلى.. ولماذا نحدد الميعاد، عودي نفسك أنني سوف أكون زائرًا لكِ وآخذك من يدك كالطفلة لمكان ما تريدين.

ابتسمتُ واتفقت معه أنني سأكون في انتظاره، وما أن مرت ساعات حتى أتى ظهر اليوم ووجدته بالفعل أمامي يدق بابي..

وكنت أنا بالفعل جاهزة على لحظة خروجنا.. غادرنا منزلي وهو ممسك بيدي وكأنه يخشى فقدانها من الإفلات منه، ثم قام بفتح باب سيارة رمادية اللون وجعلني أسبقه في الدخول بها..

كانت دافئة مثل قلبه من الداخل.. قام بالدخول هو أيضا وحرك مفتاح السيارة وأوقد مسجل سيارته على أغنيتي المفضلة (أغدًا ألقاك) يا خوف فؤادي من غدٍ.

كنت أعشق هذه الاغنية بكلماتها ولحنها وصوت مطربتها سيدة الغناء (أم كلثوم) فتبسمت له وقلت:

- يااااه هل ما زلت تذكر ما أحبه؟

- نعم وأعرف أيضا ما تودين قوله الآن.

-وما هو إذَنْ يا قارئ الأفكار؟

فأعطاني ورقة مملوءة بعطره يكسوها حروف بحبر أسود بخط جميل يجذب العين مكتوب بها:

«قولي لي يا عشق الفؤاد... كيف ابتعدت عني وأنتِ عشق الحياة بالنسبة لي.. وطوق النجاة إلي.. أعلم أنكِ تعشقين الكتابة لذلك أخذت أكتب لكِ من الدفاتر ما لا تستطيعين إحصاءه.. قولي لي يا عشق الروح أهون عليكِ تؤلمينني وتذبحينني وتتركيني هكذا أنا وجرحي.. قولي لي يا أعز الناس كيف لي أن أنسى صاحبة أول لمسة وأول دقة وأول لقاء وأجمل إحساس بالكون.. قولي لي يا مُنى العين.. عديني ألا نفترق مرة ثانية وفي هذا الوقت بالتحديد فأنا الغريق في بحر عينيكِ.. وفي نهر هواكِ.. وأستنجدُ بكِ أستتركين يدي كي أسقط ولا ألقاكِ.. قولي لي كيف لي أن أعيش أنا بدونك وأنا كالسمك إذا خرج من الماء فقدَ تنفسهُ.

فضحكت والدموع تتسلل محاولة الفرار من عيني...

فقال لي: أعرف السؤال الذي بذهنك.

قلت له: وما هو يا قارئي؟

- إلى أين أنا ذاهب بك؟

فصرت أضحك.. وقلت له: نعم إلى أين؟

- الآن ستعرفين.. لا تتعجلي.

وفجأة أوقف سيارته وقام بإنزالي منها أمام محل مجوهرات يظهر عليه الفخامة والشياكة.. ويظهر عليه الجمال..

أخذني من يدي وقام بفتح الباب الخاص بالمحل وألقى السلام على الرجل بالداخل.

- مساء الخير أستاذ كمال.

- مساء النور يا أستاذ أحمد.. ثم غمز له بعينه اليسرى وقال: هل هذه هي؟

- نعم هي.. ما رأيك؟

- واضح من خلال نظرتها لك.. الحب.

- وهل الحب يكتب هذه الأيام على الوجه يا أستاذ كمال؟

- لا ولكنها لا تتطلع على أي شيء أمامها من الذهب والمجوهرات وتسلط نظرها عليك أنت فقط برغم أن المكان يوجد به أكثر من شيء مغرٍ.

أحمد وهو يضع ذراعه على كتفي: هذه ابنتي وحبيبتي والآن أعلنتها خطيبتي ونهاية الأسبوع زوجتي.

حالة من الخجل مخلوطة مع شعور الثلج في الشتاء مصحوبة بدقات قلب متسارعة قد أمسكت بي.

ثم قلت: ماذا؟

- خطيبتي هل توافقين؟

ارتميت في حضنه صائحة: نعم نعم أوافق.. ثم بكيت بشدة لدرجة أنه كان لبكائي صوت عالٍ.

فاحتضنني أحمد بقوة وهمس في أذني قائلا:

- أحبك يا ليلى.. وهل سأجد أحدا يجعلني بطل أسطورة عشق مثل (قيس وليلى) غيرك أنتِ.. وهل أجد من يطيل انتظاره لي ويظل فؤاده ينبض بعشقي بل ويزداد برغم البعاد غيرك...

أنتِ جعلتيني أعرف للحياة طعم من جديد وزادت قوة تمسكي بالدنيا بعد أن كنت استسلمت لمرضي.. فأنا كنت قد فقدت الأمل في أن أصير مصدر عشق لأحد من بعدك.. فوالله فعلا الحب الأول لا عوض عنه..

ثم نظر لكمال الذى ظل صامتًا ناظرا إلينا وعيناه تلمع من فرحته بنا وقال وهو يشير له بيده: أريني هذه العلبة الموجودة أسفل زجاج العرض هذا من يمينك.

أتانا كمال بعلبة زرقاء اللون مربعة الشكل بها أكثر من شكل خاتم فأخذ أحمد واحدا من بينهم.. خاتما مستديرا رقيقا جدا كان له فص مستدير بارز لونه لون الزجاج الشفاف يعكس الإضاءة كالكريستالة الزجاجية..

وأمسك بيدي اليمنى ثم وضعه بإصبعي وقبله قبلة دافئة وقال لي: مبارك علي أنتِ يا ليلتي.

***

الباب الخامس

توالت الأيام والليالي ونحن أسعد حبيبين بالعالم وكأني قد ولدت من جديد صار وجهي تشع البسمة منه..

أحمدك يا الله قد نولت قلبي مناه... وصار حلمي حقيقة..

والحمد لله قد أوشك أحمد على الانتهاء من فترة علاجه هكذا صرح لنا طبيبه الخاص.

وسمح له بالزواج مني بدون أي قلق على صحته.

وغدًا هو يوم زفافي.. غدا هو فرحة عمري وكأنك يا حبيب العمر تحاول أن تسابق الأيام وتسرق منها ما تستطيع من فرح تدخله إلى قلبك.. وكأن طبيبك أراد أن يعطيك مفتاح زنزانتك من السجن الذي كنت تكمن فيه داخل مرضك وأطلق سراحك..

اليوم انتهى تقريبا وحل المساء.. وقد أتممت تجميع كل لوازمي وها هو فستان زفافي يكسو مساحة سريري بلونه الملائكي يزغلل عيني من جماله فكم هو جميل..

فقد أرسله لي أحمد اليوم وهو من اختاره لي.. بالطبع سيكون أجمل فستان فهو من ذوق حبيبي.

ذهب آخر مساء وآخر ليلة لي بمنزل أبي وأمي ودعتُ غرفتهما وأخذت صورهما معي وأتى صباح يوم زفافي...

دق بابي...

قلت: من؟

- أنا مديحة..

إنها مزينة العرائس أرسلها لي أحمد فهي من أشهر مزيني العرائس بالمنطقة...

تممت لي كل شيء تحتاجه أي عروسة في مثل هذا اليوم.. قد جعلتني عروسة على أكمل وجه..

وها هو قد جاء أحمد على بابي يطرقه...

يا الله... قد طرق باب قلبي أيضًا.. فتحت له مزينتي الباب وكنت أنا واقفة مثل الملائكة في جمالهم أنتظره وعلى وجهي طرحتي الشفافة المتدلية..

اقترب مني أحمد وهو يرتدي بذلته السوداء الأنيقة يا لجمالك و يا لحظي الجميل فزتُ بأجمل شاب على الأرض...

صمد أحمد بمكانه وكان يفصل بيننا تلك الطرحة المتدلية..

أزاحها عني بيديه وهو يرتجف فرحًا...

وأخيرًا...

اجتمع وجهانا والتقت عيوننا... قبل وجنتي واحتضنني بهدوء رائع وأمسك يدي وقال: هل تصدقين ما سوف أقوله لكِ الآن؟

قلت: نعم.

قال: وهل للملائكة الحق أن تكون موجودة على الأرض مثل البشر..

ثم حملني بقوة وصار يدور بي حتى صار شكل فستاني كوردة متفتحة في بستان من الورود.

أنزلني على الأرض وقام بتقبيل رأسي وأخذ يحمل ذراعي بذراعه وأخذني لننزل على سلالم بيتي.

كانت المفاجأة...

الجميع كانوا فرحين لي من الجيران وصارت أصواتهم تتعالى بالمباركة لنا، أصوات الزغاريد بدأت تتعالى بالشارع.

كل من أعرفهم ومن لا أعرفهم كانت الفرحة تملأ وجوههم وكانوا يهنئوننا من قلوبهم..

ها هي سيارة أحمد يا لك من رجل عظيم...

فالسيارة أصبحت مغطاة من الأمام بزهور بيضاء وفي منتصف دائرتها ورد أحمر جميل وأيضا يوجد خلف السيارة نفس الورود مثل الموجودة بالأمام.

فتح لي أحمد باب سيارته وأدخلني بفستاني الطويل للداخل ثم أغلق الباب ورائي.. وجلس هو بجواري يقود السيارة...

أراهُ زفافا مختلفا عما أعرفه من قبل...

أوقف أحمد سيارته أمام فندق يطل على شاطئ النيل الجميل..

ومن الواضح أنه فندق فخم خمسة نجوم كما يقولون.. كان أحمد قد أتم بيانات الحجز بالفندق وأنا أقف بفستاني أبعده خطوات أنتظره حتى ينتهي من حديثه.. أخذنا العاملين بالفندق إلى قاعة صغيرة وقاموا بتهنئتنا.

استقبلنا عازف الكمان أخذ يعزف لنا مقطوعات رومانسية رقيقة راقت لمسمعي، أخذنا إلى طاولة مغطاة بقماش حريري أحمر موجود عليها ثلاث شموع طويلة حمراء مربوطة بفيونكة ستان بيضاء.. موضوع فوقهم كأسي عصير ينتظرنا على هذه الطاولة هذا المأذون الذى سيربط اسمي باسم أعز الناس لقلبي .

جلست أنا من يمين الطاولة وأحمد من يسارها والمأذون أخذ الكرسي الذي يفصل بيننا وأخذ يردد علينا كلمات إتمام الزواج إلى أن وصل لبارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير..

وأزاح المنديل الأبيض من على يدينا وتركنا وذهب.. صار عازف الكمان يعزف لنا أجمل الألحان والمقطوعات الجميلة من الموسيقى في ظل الأضواء الرومانسية حولنا صرنا نرقص أنا وأحمد حتى فات الوقت بدون أن نشعر..

أخذني أحمد ومعنا أحد العاملين بالفندق ليدلنا على غرفتنا..

وصلنا لهذه الغرفة الجميلة.. كانت تشع بالإضاءة البيضاء وسرير مفروش باللون الأبيض مبعثر عليه أوراق الورد الأحمر المصفوفة على شكل قلبين داخل كل منهما حرف من بداية اسمنا...

وبالجوار طاولة مستديرة متحركة يوجد عليها أكثر من صنف عصير ولحوم وخضار مشكل وفاكهة.. جلسنا على طرفي السرير ننظر في أعين بعضنا.. ثم فجأة قام أحمد وحملني وأخذ يدور بي فقلت له: ما هذا أنزلني كفاك عبثًا بصحتك.

- أتستكثرين علي تحقيق تلك الأمنية بعد أن أصبحتِ ملكي وزوجتي..

ثم احتضنني بقوة وكتم أنفاسه داخل صدري وهو يضمني بكل ما أوتي من قوة ثم عاد قائلا لي:

- أنا أحبك أكثر من نفسي.. وانهار في البكاء فقلت له:

- بالله عليك لا تبكي... ودعك من الدموع وأدخل مكانها الفرح يا حبيبي..

فأخذته إلى صدري ضامة إياه وأنا مغمضة العينين ثم قلت له: وأنا أيضا أعشقك يا نفسي.

كان أحمد يضع على طاولة الطعام ورقة.. أخذتها لأرى ما بداخلها فوجدته كاتبا لي هذه الكلمات الرقيقة...

«محبوبتي.. نعم فأنتِ محبوبتي لست أدري لماذا أسميتك هذا الاسم ولكن قلبي ولساني سبقوني ولقبوكِ بهذا اللقب.. محبوبتي لقد أسرت حبك في قلبي كل هذه السنين وحان الآن موعد إطلاق سراحه وسأجعل قلبي من اليوم أسيرك طوال العمر... حبيبتي.. لن أتركك أبدًا لا بخيالي ولا بقلبي ولا بعقلي.. ولا بحياتي كلها طول ما حييت.. صغيرتي سأجعلكِ قنديلا لحياتي أضيء به ظلمتي ليلًا... وأجعله نهارًا شمسًا تشرق لي يومي.

فأنا لكِ دومًا... عاشقًا...

زوجك.. وحبيبك... # أحمد

مضت الأيام وكانت الأحداث بيننا طبيعية جدًا كمثل أي اثنين في أول أسبوع لزواجهم...

ولكن أحمد قد ظهرت عليه علامات التعب.. ماذا قد حل بك يا قلبي مرة أخرى؟

أخذت أكتب رقم خدمة الفندق المعلق على الحائط فوق تليفون الغرفة طلبت منهم المساعدة و ما أن عاودت ألتفت إلى أحمد حتى وجدته مغشيا عليه..

أخذ باب الغرفة يدق ذهبت مسرعة أفتح الباب لأجد طبيبا مختصا بالفندق أمامي.

أخذ يسألني بعض الأسئلة العادية وهو يتفحصه حتى أخبرته أنه مصاب بمرض السرطان..

أسرع الطبيب وطلب من هاتفه استدعاء سيارة إسعاف لتحمل أحمد حالا...

ذهبنا إلى المستشفى التابعة لعلاج أحمد..

نحن الآن بغرفة الاستقبال.. تم فحصه من طبيب الاستقبال ثم استدعى فريقا لأخذه إلى القسم العلوي لأخذ جرعة كيماوي حالًا ووضعه تحت الملاحظة.

أخذت أجري ولا أعرف ماذا أفعل حتى قابلت طبيب أحمد المسئول عن حالته أخذ الكلام يخرج مني غير مجمع:

- أخبرني يا دكتور ماذا حدث لأحمد؟

طلب مني أن أنتظر هنا حتى ينتهوا من فحصه بالداخل.. مر أكثر من ساعة... كادت في هذه الساعة أن تتوقف فيها دقات قلبي..

لا أعرف ماذا يحدث بالداخل..

أخيرًا خرج دكتور أحمد المختص بحالته ليخبرني أنه للأسف قد صعد الورم السرطاني إلى مخ أحمد..

وبناءً عليه سيستمر حجز أحمد إلى وقت غير معلوم..

خضع أحمد للعلاج حوالي شهر ونصف وهو لا يعلم عني شيئا.. فهو فاقد الوعي تماما منذُ بدأ العلاج..

أحسستُ أنني منهكة جدا فعرض علي الطبيب أن آخذ قسطا من الراحة حتى أستطيع أن أواصل الوقوف بجانب أحمد ومعاونته على تجاوز تلك المرحلة..

في ذلك الوقت كنت أحمل في أحشائي طفلا منك يا حبيبي.. وكنت أنتظر أن تفتح عينيك لأخبرك بذلك الخبر لعله يجعلك تتمسك بي وبحياتك أكثر وأكثر.. استدعاني الطبيب لألقي نظرة على أحمد فقد عاد لوعيه..

أسرعت كالمجنونة لأرى حبيبي وأخبره بحملي اتجهت إليه وأنا سعيدة جدا أخذت أمسح بيدي على رأسه وأخذت يده

ليلامس بها بطني وما أن ألقيت عليه خبر حملي حتى سقطت يده وفقد وعيه مره ثانية أخذت أنادي: دكتور ساعدني.. أرجوكم ساعدوني..

جاء فريق من الدكاترة والممرضات وأخرجوني للخارج وقفت ألقي دموعي على زجاج غرفته وأنا أشاهدهم يفعلون كل ما بوسعهم لإنقاذه إلى أن توقف ذلك الجهاز المجاور له ليعلن صوت إنذار توقف قلب أحمد وقعتُ على الأرض وأنا أصرخ باسمه وأنادي عليه: أرجوك كن موجودا من أجلي.. من أجل طفلنا الذي مازال بداخلي أتتركه هكذا بدون لمسه..

أتذهب وتتركني بعد أن ذقت أجمل أيام العمر منك...

لا تتركني مثلهم فجميهم تركوني مثلك ورحلوا... لمن سأعيش ولمن سأبقى.. أرجوك خذني معك..

يا الله ساعدني.. ما عدتُ أقوى على صدمات الحياة... رحل من كنت أعيش من أجله.. رحل من كان سبب عشقي للحياة.. رحل حبيبي بالماضي وزوجي بالحاضر.. كيف لي أن أحيا بدونك.. كيف لي أن أكون وهو لا يكون.

رضيت بقضائك لي يا الله.. أخذت مني تاريخ عشقي وأعطيتني منه ذلك الملاك الصغير.

توالت الشهور وأتى إلى عالمنا ملاكي الصغير..

وهـا أنـا قـد رزقـت بمولـودتي الجميلـة منـك وقـد أسـميتها (ملـك) مثلـما كنـت تتمنـى معـي بالمـاضي فهـي تشـبهك شـكلا وطباعـا أيضـا...

وسـأترك لهـا دفاتـري التـي تقـص روايتنـا والحـرب التـى مـررت بهـا أنـا مـن مـرارة البحـث عـن أبيـكِ.. ومـرارة الألم مع المـرض التـي عاناهـا أبـوكِ...

اقرئـي كلـماتي عنـد الكـبر.. أمـا أنـا سـأقصها عليـكِ في الصغـر... حتـى تقصيهـا عـلى أولادك مـن بعـدي كـما قصصتها هنـا في روايتـي.. لأطلـق صـاروخ روايتـي التـي أسـميتها (كنت أمـسي والآن أصبحـت حـاضري)...

***